أضواء على الحركة القومية العربية في البصرة بقيادة طالب النقيب 1914 – 1908

خالد السعدون*

كتب الكثير عن هذا الموضوع، ولكن ما كتب غير كاف، فبعضه تعوزه الدقة، والآخر مجمل بحاجة إلى تفصيل. ويطمح هذا البحث لسد ذلك النقص، معتمداً على معلومات وفرتها الوثائق القنصلية البريطانية والأمريكية، وروايات المعاصرين المتاحة، فضلاً عن بعض الدراسات الأكاديمية الحديثة. وقد توصل البحث إلى بعض الاستنتاجات، أهمها:

1. تركز الحركة حول شخص السيد طالب الذي استخدمها اطاراً لطموحاته الذاتية، ولذلك فإنها تلاشت بمجرد اختفائه من الميدان.
2. نجح السيد طالب في بناء مركز قوة حقيقي في البصرة مستخدماً تكتيكات ذكية عديدة، بعضها غير قانوني. وقد سخر ذلك المركز لتحدي السلطات الحكومية التي كان يعي جيداً ضعفها العام حينئذ.
3. إن مزاج السيد طالب المتقيد وضع الحركة في حالة صدام مع قوى مؤثرة في المجتمع المحلي، مما جرها إلى بعض المعارك غير الضرورية.
4. كان السيد طالب يدرك جيداً أهمية العامل الدولي في صراعه مع الاتحاديين، لذا كان –مثل غيره من زعماء العرب في عصره– تواقاً لإقامة صلة وثيقة مع بريطانيا.

Abstract

Many have been written about this subjct, but none is enough. Some needs more accuracy and others need more details. This paper aims to resolve these defects depending on some cosular reports and the available contemporay statements, alongside with some new academic studies. The paper reaches to the following major conclusions::

1. The movement was centralized around Seyed Talib personally, He used it as a framework to his ambitions. Consequently is desappeared when he left the scence.
2. Seyed Talib have susseeded t obuilt a real powerfl position in Basrah by means of many clever tacties, some were illegal. He used that position to challenge the governmental authorities which he was good aware of their weakness then.
3. Seyed Talib's fieriness put the movement in clash with other influental powers of the local society and Ied it to some unnecessary battles.
4. The international factor was good realized by Seyed Talib, so he –like other Arab leader of his time –was eager to establish a firm connection with Britain.

* كلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

تاريخ استلام البحث: 2003/3/19 تاريخ قبول البحث: 2004/2/29

كـتبت الكثير من الدراسات عن نشوء الحركة القومية العربية أواخر القرن التاسع عشر، وعن تطورها السريع بعد قـيام انقلاب 1908 في الدولة العثمانية .(1) ولكن أغلب تلك الدراسات ركزت على أنشطة تلك الحركة في بلاد الشـام واسطنبول ومهاجر ناشطي القوميين في القاهرة وأوربا . وعني قليل منها بواقع تلك الحركة في الميدان العراقي، واكتفى برسم صورة مجملة له معتمة الملامح أحياناً. فبقيت لذلك بحاجة إلى مزيد ورد في الوثائق الأمريكية والبريطانية المعاصـرة. إذ أنها تضيف معلومات جديدة لم توردها الدراسات السابقة، أو تعدل كثيراً أو قليلاً في معلومات أخرى ذكرت سابقاً.

يمكـن التسليم بادئ ذي بدء بحقيقة ضعف الحركة القومية في العراق حينئذ مقارنة بمثيلتها المجاورة في بلاد الشام . وقد حاول أحد الباحثين تحليل الأسباب الكامنة خلف تلك الحقيقة بالقول ان قوة السلطات الحاكمة في العراق وضيق نطـاق التعلـيم بين سكانه وطبيعة أولئك السكان العشائرية وخلافاتهم الشخصية وموقع بلادهم القصي نسبياً الذي أبعدها عن تيارات الحركة القومية وهي عوامل أسهمت جميعها في عرقلة نمو الوعي القومي وحدت من أنشطة القوميين العـرب. وأضاف ذلك الباحث عاملا آخر هو البلاغ الذي نشرته وزارة الداخلية العثمانية في الصحف العراقية بتاريخ 17 كانـون الأول 1909 وقضـى بتحريم تأسيس الجمعيات القومية . كما نصت المادة الرابعة من قانون الجمعيات الذي نشرته تلك الصحف في التاسع عشر من كانون الثاني 1910 على حظر تأسيس الجمعيات على أساس قومي . ومنعت المادة السادسة من القانون نفسه منعاً باتاً تأسيس جمعيات سرية (2). ويمكن الاطمئنان إلى سلامة ذلك التحليل مـع الـتحفظ على ما قيل عن قوة السلطات الحاكمة في العراق، إذ تظهر الشواهد أن تلك السلطات لم يكن لها من القـوة ما يفـوق قرينتها في الولايات الأخـرى التي نشطت فيها الحركة القومية العربية، بل لعلها كانت أكثر ضعفا مـنها (3) . ومع تلك المعوقات كلها نشأت في العراق حينئذ حركة قومية عربية تصدت البصرة لقيادة أنشطتها دون منازع(4) . ولم تتبوأ البصرة ذلك المركز عفوًا، ولكن نتيجة لعدة أسباب هي موقعها القصي عن قلب الدولة العثمانية وانفتاحها على العالم الخارجي لكونها ميناء ورقي سكانها الفكري نسبياً، وانفكاك كثير منهم من أسار القبلية الضيقة ووضـع المدينة الاقتصادي الخاص المتأتي من كثرة زراعة النخيل وكبس التمور وتصديرها الى الخارج . (5) ولا يحسن هنا إغفال الإشارة إلى جوار البصرة لإمارات عربية شبه مستقلة في الكويت والمحمرة ونجد قام حكامها بتعضيد أنشطة الحركة القومية في البصرة أحياناً بشكل مباشر أو غير مباشر .

تطورعلاقة السيد طالب النقيب بالاتحاديين :

وقـد لعـب السيد طالب النقيب دوراً أساسياً في ظهور تلك الحركة من خلال موقعه الاجتماعي الموروث وقوته السياسية التي بناها بجهوده الذاتية .وكان السيد طالب حين وقع انقلاب تموز 1908 موجوداً في اسطنبول لمزاولة مهام عمله عضواً في مجلس شورى الدولة منذ سنة 1903 (6) . فغادر العاصمة بعد وقت قصير خشية أن تلحق به إهانة علـى أيدي الانقلابيين الذين كانوا يعرفون صلته بأبي الهدى الصيادي الرفاعي الوثيق الصـلة بالسلطان عبد الحميد الثاني (7). وسجل المبشر الأمريكي المقيم في البصرة حينئذ القس جون فان إيس J. Van Ess خبر وصول السيد طالب إلى تلك المدينة في رسالة بعثها إلى القنصل الأمريكي في بغداد في الثاني عشر من تشرين الأول 1908 . وجاء

فيها : "عاد السيد طالب باشا معكر سلام البصرة خلال السنين الماضية بعد أن كان مقيماً في اسطنبول لبعض الوقت . وأخشى أنه بدأ مكائده الدموية مرة أخرى . وقد أخبرني القنصل الروسي بأنه سوف يعاد إلى اسطنبول ثانية لكونه يشكل تهديدا للأمن العام " . (8) ويستدل من هذا الخبر تخوف الأوساط الأجنبية المقيمة في البصرة من عودة السيد طالب . وكان ذلك الخوف نابعاً دون ريب من استخدامه المعروف للأساليب العنيفة من أجل فرض آرائه على الآخرين . ولم تكن السلطات الحاكمة في الولاية ذاتها بعيدة عن ذلك العنف . إذ دأب السيد طالب خلال السنوات الست المنصرمة وبالتواطؤ مع حليفيه الوثيقين شيخي الكويت والمحمرة على تدبير غارات مسلحة تعكر صفو الأمن في الولاية من أجل قسر الوالي المعني على الرضوخ لمشيئتهم إذا اتخذ موقفا يمس مصالحهم مجتمعين أو مصلحة واحد منهم، كما كتب القنصل البريطاني في البصرة في آذار 1909 . (9)

وكان تخوف السلطات الحكومية من عودة السيد طالب إلى البصرة مبنياً على تجارب الماضي، وليس على معطيات الواقع الراهن . إذ لم تصدر عنه أي إيماءة عداء نحو النظام الوليد، بل على العكس حاول منذ البداية ركوب الموجة الجديدة .فانضم الى فرع جمعية الاتحاد والترقي الذي أفتتح في مدينة البصرة بعيد الانقلاب، وتبرع بسبعين ليرة ذهبية لاستئجار مقر للفرع وتأثيثه، فضلاً عن عشر ليرات أخرى عن بدل اشتراكه في الجمعية .(10) ولاشك ان موقفه هذا يسر له عملية انتخابه مبعوثاً عن البصرة حيث عاد أدراجه إلى اسطنبول عضواً في مجلس المبعوثان الجديد متمتعاً بالحصانة البرلمانية .ولاحظ أحد معاصريه هناك ان همّهُ بعد وصوله إلى اسطنبول تركز على الحصول على منصب وزاري يعتقد أنه أهل له . وحين يئس من تحقيق ذلك الهدف جعل شغله الشاغل احداث ضجيج وجلبة في أجواء اسطنبول السياسية . (11) وكان ذلك الضجيج مقدمة لانقلابه على الاتحاديين الذي تم بعد مرور سنة على انضمامه إليهم . (12) ولكن ذلك الانقلاب لم يحدث فجأة بل كانت مقدماته تعتمل تحت السطح منذ حاول الاتحاديون عرقلة انتخاب السيد طالب لعضوية مجلس المبعوثان ثم سعوا لعدم تصديق أوراق انتخابه في أول جلسة للمجلس على الرغم من عضويته في جمعيتهم .(13) ولكنه مع ذلك لم يسجل قيامه بنشاط معارض ضدهم حتى أواخر سنة 1909 . وكانت باكورة ذلك النشاط برقية بعثها السيد طالب باسم سبعة وعشرين وجيها بصرياً إلى المراجع الحكومية العليا في اسطنبول في 21 كانون الأول 1909 احتجاجاً على فكرة بيع الادارة النهرية الحكومية الى شركة لنج الانجليزية(14) . وفضلاً عن تلك القضية القطرية بدأ السيد طالب يبدي اهتمامه بالقضايا العربية العامة . فقد أبرق من اسطنبول برقية إلى البصرة تضمنت فحوى ما كتبته صحيفة" اقدام " الاسطنبولية في الثامن من آذار 1910 وعد مسيئاً للعنصر العربي (15) .

وأخذ نشاط المعارضين في البصرة يتصاعد بايحاء من السيد طالب على الأرجح .فقد شن الصحفيون البصريون، وفي مقدمتهم سليمان فيضي صاحب صحيفة الايقاظ والنصير المقرب للسيد طالب، حملة على السلطات الحاكمة بدعوى تضييقها على حرية الصحافة . وأدى ذلك إلى سخط مسؤولي الولاية على فيضي، مما سبب شجاراً عنيفاً بينه وبين نشأت بك قائد القوات الحربية ووكيل قائد الدرك في البصرة في تموز 1910 .وترتب على ذلك الشجار حدوث

هـــياج عام بين سكان المدينة الذين أعلنوا وقوفهم إلى جانب فيضي، وأبرقوا إلى والي بغداد حسين ناظم باشا شاكين ســـوء تصرف نشأت بك . (16) وما مضت قرابة شهرين آخرين حتى شغلت مدينة البصرة بمشاجرة أخرى طرفاها هـــذه المـــرة السيد طالب نفسه والوالي سليمان نظيف بك . ويستدل من حدوثها على مقدار تأزم العلاقة بين السيد طالـــب والاتحـــاديين الذين كان الوالي المذكور من قادهم البارزين . وقد وصف القنصل البريطاني العام في بغداد تلك المشـــاجرة بأنهـــا كانت عنيفة وغير مشرفة الى حد ما. ولكنه لم يفصح عن سببها، بل اكتفى بالقول ان المتشاجرين كليهما أبرقا بحرية إلى المراجع الحكومية العليا في اسطنبول بشكوى أحدهما ضد الآخر.(17) وسكتت المراجع المحلية عـــن الاشارة إلى سبب تلك المشاجرة (18) . ولذا لا يبقى سوى محاولة الاحاطة بالظروف العامة السائدة في البصرة الـــتي أثرت في العلاقة بين الرجلين .فقد جرت المشاجرة في وقت احتدم الخلاف فيه بين الوالي والشيخ خزعل حاكم المحمرة وحليف السيد طالب(19) . كما أن خبراً رواه القنصل العام البريطاني في بغداد لاحقاً يظهر ان سليمان نظيف بك كان قد أسخط السيد طالب بازاحة أبناء أسرته عن عضوية مجلس إدارة الولاية. وقد تراجع قاضي البصرة الذي تـــولى وكالـــة الولاية بعد استقالة سليمان نظيف بك عن ذلك الاجراء . ولكن وزير الداخلية العثماني نقض تراجعه وعزله عن وكالة الولاية وأسندها الى مدير التحريرات .وعند هذا غادر السيد طالب البصرة متوجها إلى اسطنبول عن طريق البحر في تشرين الثاني- أكتوبر 1910 . (20)

وقـــد هـــدأت فـــورة النشاط في البصرة بعد مغادرته، وإن كان هو شخصياً لم يركن الى الهدوء بعد وصوله إلى اســـطنبول. فقد صعد هناك حدة معارضته للحكومة الاتحادية، فوجه في شباط 1911 رسالة جريئة إلى شريف مكة شاكيا مما يعانيه العرب من اضطهاد، وداعيا إياه للتصدي للاتحاديين . (21)كما أرسل في نيسان من تلك السنة برقيتي احتجاج شديدتي اللهجة الى المراجع العثمانية العليا ضد قرار اغلاق مدرسة الحقوق في بغداد، معتبراً ذلك القرار دليلاً علـــى سوء نية الحكومة تجاه العرب . (22) وقد عاد السيد طالب إلى البصرة في الثالث من تموز 1911 (23) بعد انتهاء أعمال دور انعقاد مجلس المبعوثان . وتورط بعيد وصوله الى البصرة بقصد أو بدون قصد في حادثة القاء القبض علـــى سعدون باشا آل سعدون ونفيه إلى حلب في ذلك الشهر نفسه . وقد تركت تلك الواقعة آثارا مهمة على علاقته المقبلة مع عجمي آل سعدون كما سيمر .(24) كما استقر رأيه بعد عودته على تأطير نشاطه المعارض في اطار تنظيمي فافتـــتح في آب 1911 فـــرعا للحـــزب الحر المعتدل المعارض . (25) ولكن ذلك الفرع لم يكن ذا صلة فعلية بالمقر الرئيس للحزب في اسطنبول، بل هو مستقل تمام الاستقلال في سياسته . ولم يطل عمر ذلك الفرع، حيث أقدم السيد طالـــب في أواســـط تشرين الثاني 1911 على تغيير اسمه، فأصبح فرعا لـــحزب الـــحرية والائتلاف الذي كان قد تأســـس في اســـطنبول قبيل ذلك(26). وغادر الســـيد طالب بعد ذلك البـــصرة إلى اسطنبول لحضور أعمال مجلس المـــبعوثان في دورتـــه الجديدة(27) وأبدى السيد طالب في هذه المرحلة حرصاً واضحاً على توثيق صلته بالمسؤولين البريطانيين، فزار مصر في أوائل سنة 1912 والتقى باللورد كتشنر .وزار بعدها الهند حاملا رسالة تعريف من القنصل الـــبريطاني في البصرة مما مكنه من مقابلة نائب الملك هناك . (28) ويعكس ذلك الحرص اتجاها بدأ يتبلور بين بعض قياديي القوميين العرب حينذاك بامكانية الحصول على دعم أوربي لخططهم العامة أو طموحاتهم الشخصية .

عـــاد السيد طالب وبمعيته زميله في مجلس المبعوثان نعيم بك إلى البصرة في أيلول 1912، واستقبله سكان المدينة اســتقبالاً حافلاً(29). وانشغل بعد عودته في صراع طويل مع عجمي السعدون، تشابكت فيه عوامل الثأر العشائري والطمـــوح الشخصي والخلاف السياسي . و لم تكن أصابع السلطة بعيدة عن تأجيج نيرانه(30). وقد تفاقمت خلال ذلـــك مشـــاعر السخط في نفوس بعض وجهاء المدينة ضد السلطات الحكومة المركزية حتى لقد قيل إنهم اقترحوا على السيد طالب استغلال انشغال السلطات الحكومية بالحرب البلقانية للقيام بمذابح في مدينة البصرة . ولكن السيد طالب رفــض ذلــك الاقتـــراح كما أشيع في المدينة في أوائل شهر كانون الأول سنة 1912(31). و لم يبين القائم بأعمال الوكـــيل القنصــــلي الأمريكي في البصرة الذي نقل ذلك الخبر الجهة التي كان من المفترض ان تدبر لها المذابح المزعومة .وتدعـــو صياغة الخبر الغامضة الى التشكك في صحته، لاسيما ان علاقة السيد طالب كانت حينئذ جيدة مع الحكومة الائتلافية التي استلمت مقاليد السلطة في اسطنبول من الاتحاديين في شهر تموز 1912 . وقد دفعته تلك العلاقة الجيدة للنشـــاط في جمع التبرعات للمجهود الحربي الحكومي، فترأس اللجنة التي شكلت لها الغرض .وكان مجموع التبرعات التي جمعتها تلك اللجنة من البصرة ومنطقة الخليج الـــمجاورة قد بلغ في كانون الثاني 1913 ســـتة وثلاثين ألف ليرة ذهبية عثمانية (32).

تأسيس الجمعية الاصلاحية في البصرة :

ولكن عهد الوئام القصير سرعان ما انتهى بسقوط الحكومة الائتلافية وعودة الاتحاديين إلى الحكم في كانون الثاني 1913 .وحـــدث على أثر ذلك تطور لافت للنظر، إذ دعا السيد طالب عدداً كبيراً من وجهاء البصرة للاجتماع في منزلـــه في الســـادس والعشرين من ذلك الشهر . وأسفر اجتماعهم عن إعداد مذكرة وقعوها وختموها وأقسموا على الالتزام بما جاء فيها . وقد نصت تلك المذكرة على قناعة الموقعين بأن الخلافات الحزبية قادت الدولة العثمانية إلى حافة الخراب، ولذلك فإنهم لن يقفوا منذ تلك اللحظة إلى جانب جمعية الاتحاد والترقي أو إلى جانب معارضيها، وسيكرسون جهودهم للقضية العامة للدولة العثمانية دون انحياز حزبي . (33) وقيل في تفسير ما حدث ان الحكومة الاتحادية تخوفت من استفحال نفوذ فرع حزب الحرية والائتلاف في البصرة فأقنعت السيد طالب بحل ذلك الفرع مقابل حل فرع جمعية الاتحـــاد والترقي هناك(34). ويبدو ان السيد طالب قبل ذلك العرض وهو يبطن الخديعة، إذ أعلن في الثامن والعشرين من شباط 1913 قيام "الجمعية الاصلاحية " التي انفردت بالنشاط السياسي في البصرة . (35) ويعتقد ان تلك الجمعية كانت تستهدي مبادئ حزب " اللامركزية العثمانية " الذي أسس في مصر، ولكنها لم تكن فرعا له . (36)

وكان اشهار تلك الجمعية نتيجة لخطوة أخرى أقدم عليها السيد طالب، حين جمع الوجهاء في منزله في العشرين من شـــباط 1913 وجعلهم يوقعون مذكرة جديدة كي تقدم إلى والي البصرة ثم تبرق إلى الصدر الأعظم ووزير الداخلية في اســـطنبول .كما طيف بتلك المذكرة على وجوه الناس الذين لم يحضروا الاجتماع لتوقيعها .(37) وقد بلغ عدد الموقعين على تلك المذكرة ثلاثمائة، وجرى ابراقها إلى اسطنبول بالفعل في الثاني والعشرين من الشهر نفسه (38). وقبل أن يورد القنصل البريطاني في البصرة نص تلك المذكرة ذكر ان عرب البصرة،كما نما لعلمه، يفكرون بشكل من أشكال

الحكم الذاتي . وإذا أجيب مطلبهم هذا فالهم سيطالبون بحق إنفاق الإيرات المحلية لخدمة أغراض ولايتهم، ويحول الفائض ان وجـد إلى اسطنبول . وأضاف أن من السابق لأوانه التنبؤ بالشكل الدقيق الذي ستتخذه مطالبهم، لكن من الواضح ان الشعور المحلي يتجه بقوة ضد نظام جمعية الاتحاد والترقي وأساليبها(39).

وقد جاء نص تلك المذكرة حسبما ترجمه القنصل البريطاني في البصرة إلى اللغة الانكليزية على الشكل التالي(40):

"ان رغبتـنا الوطنـية الكـبرى هي تأمين مستقبل البلاد وترقية حال الناس ورعاية أمورهم . ونحن – مدفوعين بحاجاتنا الوطنية والاجتماعية – نعرض مع عميق الاحترام الأمور التالية كي تكون موضوع تأملكم . ونود أن نبين لكم أنـنا بكينا حتى لم يعد بطاقتنا البكاء صدمة وأسى على الخراب الحالي لوطننا المحبوب الذي غدا أشبه بفريسة تثير شهية أعدائنا وتدعوهم لمحاولة انتزاعها منا . إننا نجد حيثما نقلنا الطرف سحباً سوداً لدمار ومحن وكوارث محققة تطبق فوق رؤوسـنا كانطباق غطاء النعش . اننا اليوم جميعاً، كباراً وصغاراً، مرضى أو متنورين أو صما، في حالة واحدة . فقد اضمحلت كافة فروع العلم والثقافة والأدب والتجارة والزراعة ودفنت عميقا تحت ركام الجهل . وقبض الفقر والعوز علـى زمـام جمهـورنا، وأخذا يجرانه قدما نحو الخراب . فالأسر التي كانت تعين في يوم ما أعداد كبيرة من الفقراء والمعـوزين أضحت هي نفسها اليوم في فاقة وكرب . أننا باختصار نسحق تحت نير ذل لا يطاق . فما هو سبب هذا الذل المخزي ؟ لقد وجدنا بعد التأمل مصدراً رئيساً تنبع منه كل الأسباب وتتفرع بشكل واسع لا حصر له، ألا وهو انطماس العلم والثقافة بكل معانيهما انطماساً كلياً في منطقتنا .

"وحيث ان معالجة الداء تصبح أيسر دون شك إذا شُخِّصَ تشخيصاً سليماً فاننا نلتمسكم باسم الوطن والأمة الاذن بدعـوة مجلـس عـام للولاية للاجتماع في دورة استثنائية على الفور . إن تشكيل هذا المجلس ليس ضرورياً بحد ذاته فحسب، بل هو بالغ الأهمية، وملح من أجل أن نوقف وإلى الأبد الخراب والبؤس والفاقة والحاجة التي ترهقنا بالشكل الذي بيناه . ونظراً للضرورة القائمة بشكل جلي لمناقشة كافة الأمور المؤثرة في معرفة وتربية وثروة ورخاء شعبنا ووطننا ولاتخـاذ قـرارات بشأنها ثم الشروع في الخطوات الضرورية لتنفيذها، لأنها قضايا حياة أو موت لشعبنا ووطننا، فاننا نلتمسـكم الايعـاز بدعـوة المجلـس العام للولاية للاجتماع في دورة استثنائية فورية دون اعتبار للوقت المعتاد المحدد لاجـتماعه" . وبعد أن أورد القنصل العام البريطاني في بغداد نص تلك المذكرة علق عليها بالقول انها صيغت بعبارات لطـيفة معتدلة، ولكنها طالبت حقا بحكم ذاتي، حيث دعت إلى تكريس ضرائب الولاية لتغطية النفقات المحلية على أن يرسـل الفـائض _ إن وجـد _ إلى اسطنبول . وأضاف ان المذكرة اقترحت تبني خطة اصلاحات مماثلة للخطة التي وضعت لولاية سوريا . (41) ويبدو ذلك التعليق وكأنه يتحدث عن مذكرة أخرى غير التي أورد نصها . إذ لا يتضمن النص المثبت شيئا من تلك الطلبات، مما يرجح اجتزاء القنصل للنص الأصلي وايراده لمقطع منه فقط .

ولا تبدو إشارة القنصل العام عن خطة الاصلاح في ولاية سوريا دقيقة هي الأخرى، إذ أنها لم تكن شاملة لسوريا كلـها، بـل انصبت على ولاية بيروت فقط . فقد وضع في بيروت مشروعان اصلاحيان، اقترحت أولهما لجنة منتخبة تضـم ستة وثمانين عضوا يمثلون مختلف طوائف السكان . ووضع الثاني من قبل الوالي بالاستعانة بأعضاء مجلس الولاية العـام واشـخاص آخـرين دعاهم للتشاور بشكل خاص . وهدف المشروعان كلاهما إلى تطبيق درجة متفاوتة من

اللامركـــزية الاداريـــة . (42) وذكر السفير البريطاني في اسطنبول ان مضمون ذينك المشروعين الذي يعتزم مده الى ولايات أخرى ناطقة بالعربية يهدف إلى إنهاء الادارة التركية المباشرة لكي يحل محلها حكم عربي ذاتي ذي حدود معينة . وعلـــق السفير على ذلك بالقول : " قبل انتقال مقاليد الأمور في تركيا إلى جمعية الاتحاد والترقي كان التصور التركي لحكم الولايات العربية قائما على أساس الرابط الديني الذي يربطها بالخلافة التركية القائمة واقعياً defacto مع ادارة مـــؤلفة من موظفين أتراك تدعمها عند الضرورة قوات حربية تركية .ولكن السنوات الخمس الأخيرة من عمر الحكومة التركية ذات الصفة الاتحادية نفرت مشاعر العرب ودمرت إيمانهم بقدرة تركيا على صيانة حكمها في تلك الولايات غير التركية كما أجبرت تلك الحكومة على بدء النظر للعرب باعتبارهم مناوئين للمصالح التركية . وترتبت على هذه العملية العقلية صياغة مشاريع عما يسمى " اللامركزية " التي سيعني تطبيقها بقاء الولايات العربية " عثمانية " بالاسم، ولكنها ســتكف بكل معنى أو قصد عن أن تشكل جزءا مما يسمى الآن " تركيا " . إن الحكومة المركزية لشعورها بضرورة المضي قدماً إلى حد ما لملاقاة رغبات العرب وآخرين تفكر بمشاريع لا مركزية . ولكن تتبقى رؤية ما إذا كانت قادرة علـــى تحريـــر نفسها من نزعة " التتريك Turcification " التي يعكسها إلى حد كبير التوجه الحالي، فتمنع بذلك الحـــركة العربية من اتخاذ صبغة مضادة للترك أكثر تطرفاً وخطورة . ان جمعية الاتحاد والترقي بسياستها المعادية لرجال الدين anti –clerical قد قوضت قوة الخليفة الروحية ومكانته في العاصمة والولايات إلى درجة أن الرابط الديني القديم الذي كان يربط العرب بالحكومة المركزية قد أضعف إلى حد التلاشي تقريباً. وربما تعرض المركز الكلي للخلافة التركية للخطر بشكل لا علاج له " (43) .

ويـــبرر طول الاقتباس السابق نفعه في بيان خلفية الصراع بين الحركة القومية العربية عموماً والحكومة العثمانية . ويســـتفاد مـــنه استعداد تلك الحكومة لطرح مشاريع تحوي بعض التنازلات للعرب، وان لم تصل حد تلبية مطلب "اللامركـــزية " الذي رفعته الحركة القومية العربية حينئذ . فقد أصدرت وزارة الداخلية في نيسان 1913 قراراً نص علـــى جعل اللغة العربية لغة التعليم في الولايات التي تقطنها أكثرية سكانية عربية مع بقاء تدريس اللغة التركية الزامياً .كمـــا قضى بالسماح باستخدام اللغة العربية في المحاكم والدوائر الرسمية في تلك الولايات (44) ولكن تلك التنازلات الجـــزئية لم تـــرق الى مستوى طموحات القادة العرب، وفي مقدمتهم السيد طالب الذي قرر خوض صراع إرادة مع الســـلطات الحكومية في ولاية البصرة . وجعل حالة الأمن المتردية في ربوع الولاية موضوعا لذلك الصراع . وأوعز لأتباعه تقديم عريضة إلى وكيل الوالي بذلك الشأن .فاستجابوا لأمره واتجهوا الى السراي في الثالث والعشرين من نيسان 1913 بأعـــداد كبيرة حاملين عريضة انتقدت انعدام الأمن في الولاية وتفشي الجرائم بأنواعها وعجز السلطات عن معاقـــبة الجـــناة. وبينت عدم كفاية قوة الدرك لمواجهة ذلك الواقع، فهي تضم مائة وثمانين رجلاً فقط، يتمركز منهم ســـتون في مديـــنة البصـــرة وحدها . وفضلاً عن قلة عددهم كان الدرك أنفسهم سببا في سوء الحال حيث يستوفون الأتـــاوات من المسافرين والتجار الذين تمر قوارهم بمراكز الدرك المنتشرة على طول النهر بين القرنة والفاو، ولا تستمع سلطات الولاية للشكاوى حين ترفع ضد تجاوزاتهم تلك . (45)

وطلب الوجهاء عند تقديمهم العريضة من وكيل الوالي باسم سكان الولاية جميعهم أن يقوم خلال يومين بطرد قائد الـــدرك عاكـــف بك، وقائد طابور الدرك حسين هجراني أفندي، وقائد درك " أبو الخصيب " إبراهيم أفندي لعدم كفايـــتهم في قمع الجريمة ولحوكهم المكائد واثارتهم سخط الناس، ولكونهم أسسوا مؤخراً جمعية أطلقوا عليها اسم " الناموس والقوة " . وشاركهم في عضويتها آخرون سيطلب نقلهم لاحقاً . وشدد الوجهاء على ضرورة قيام الحكومة بابعـــاد الضـــباط المذكـــورين فورا اذا كانت حريصة على كسب مشاعر السكان . أما إذا وقفت ضد تلك المشاعر وتمســـكت بابقـــاء أولئك الضباط حيث هم فستتحمل العواقب حيث سيقوم السكان بطرد جهازي الشرطة والدرك ويـــتخذون بأنفسهم الاجراءات اللازمة لصيانة الأمن العام . وقد رد وكيل الوالي على الوجهاء بقوله ان كلامهم يعد انـــذاراً لا يمكنه قبوله، وطلب منهم امهاله عدة أيام لرفع الأمر إلى الحكومة المركزية في اسطنبول . فوافق الوجهاء على ابقاء الأمر معلقا عدة أيام، ولكنهم هددوا بطرد الضباط المعنيين عنوة اذا لم يتم نقلهم في الأسبوع التالي .(46) ويتضح ممـــا مر ان أولئك الوجهاء اتخذوا بايحاء من السيد طالب الذي لم يشترك معهم شخصياً في تقديم العريضة حقيقة تردي الحالـــة الأمنـــية في الولاية وسيلة لاملاء مطلب سياسي على السلطة . فقد كان أولئك الضباط من متحمسي أعضاء جمعـــية الاتحاد والترقي الساعين إلى تبني العنف مع المعارضين، ولذلك كان على السيد طالب العمل على إبعادهم من الـــولاية . ويلاحـــظ هنا مقدار قوة السيد طالب وأنصاره في البصرة حينئذ بما مكنهم من مخاطبة السلطة بلغة التهديد الصريح .

ولم يمر ذلك التحدي الصريح دون رد فعل، كان مسرحه بلدة الزبير المجاورة .فقد أثيرت البلدة بانتشار إشاعة تفيد بأن أبناء عبدالله آل ابراهيم شيخ الزبير السابق يزحفون من الكويت المجاورة لمهاجمة البلدة . ونتج عن ذلك تجمع حشد مـــن الناس بقيادة محمد العصيمي ومحمد المشري، فأخذوا " يهوسون " ويهددون بالزحف إلى البصرة من أجل " حماية الدســـتور " .وليســـت هناك صلة ظاهرة بالطبع بين " حماية الدستور " وصد الهجوم المزعوم على بلدة الزبير . ولكن القنصل البريطاني في البصرة شخص صلة خفية بين الأمرين حين سجل وجود انطباع عام شائع في مدينة البصرة عن أن ضـــباط الدرك المذكورين آنفا بالاشتراك مع محمد العصيمي نصير جمعية الاتحاد والترقي وعدو السيد طالب رتبوا تلك المظاهـــرة في الزبير من أجل صرف الانتباه عن الشكاوى المرفوعة ضدهم . وذكر القنصل ان الواقعتين كلتيهما سببتا خشية كبيرة في مدينة البصرة، حيث ذعر السكان وقلقوا من احتمال وقوع صدام عند رفض الحكومة الاستجابة لمطلب القومـــيين . (47) وقد وصلت أخبار تينك الواقعتين الى القنصل العام البريطاني في بغداد، فعلق على أولاهما بالقول ان ذنـــب ضباط الدرك المذكورين الحقيقي هو أفكارهم السياسية وانشاؤهم جمعية " الناموس والقوة "، وهي أحد فروع جمعـــية الاتحـــاد والترقي التي أفسدت عبادتها للقوة عقول شبان ترك كثيرين . وعلق على تظاهرة الزبير بالقول إنها إذا كانـــت مـــرتبة من قبل خصوم السيد طالب فربما يمكن اتخاذها مثلاً على ما سيحدث إذا ما منح استقلال ذاتي لعرب البصرة في يوم من الأيام . (48)

الصراع حول قانون مجالس الولايات :

ولم يكن اختبار القوة بين السلطات الحكومية وقوميي البصرة حول موضوع ابعاد ضباط الدرك الا تمهيدا لاختبار آخر أشد قوة بين الجانبين . وكان موضوع الاختبار الجديد أكثر اتصالا بالأهداف المعلنة للحركة القومية العربية، إذ انصب على قانون مجالس الولايات . فقد سعت الحكومة الاتحادية الى قطع الطريق على مطلب القوميين العرب باللامركزية فنشرت في الجريدة الرسمية " تقويم الوقائع "قانون تشكيل مجالس الولايات". وقد علق المقيم السياسي البريطاني في بغداد على تلك الخطوة باعترافه بعدم امتلاك معلومات دقيقة عن بنود القانون، ولكن ذلك لا يمنع من القول أنه ربما كان نسخة منقحة أو اضافة لقانون الولايات الذي سبق نشر بعضه في السنة المنصرمة . وأضاف مهما كانت طبيعة القانون الجديد فن الزاوية التي ينظر إليه منها مختلفة بين الحكام والمحكومين .فهدف الادارة الحكومية هو منح كل ولاية مظهر حكومة ذاتية عن طريق تشكيل مجلس عام ينتخبه سكانها، مع ابقاء في السلطة الحقيقية كلها بيدي الوالي الذي سيستمر عاملاً بتوجيهات الباب العالي بالطبع . بينما هدف العرب هو الحصول لأنفسهم على شئ من السيطرة الفعلية على الادارة . (49)

وكتب القنصل البريطاني في البصرة في التاسع والعشرين من نيسان 1913 ان ولاية البصرة لم تستلم نسخة من ذلك القانون أو تعليمات عن كيفية تطبيقه على الرغم من نشره في الجريدة الرسمية .ولكن ذلك لم يمنع أقطاب الحركة القومية في البصرة يتقدمهم السيد طالب من إعلان اعتراضهم على بنود معينة فيه . ولعل من الأفضل ترك ذلك القنصل يصف بنفسه ما حدث، إذ قال : " احتل بعض المبعوثين والوجهاء العرب مكتب البرق مساء السبت السادس والعشرين من الشهر الجاري وتراسلوا مع وزير الداخلية مباشرة . أرسل الوجهاء برقيات كثيرة، ولكن رد الفعل المقابل كان ضئيلاً . ومكثوا في مكتب البرق حتى الساعة الثالثة تقريباً من فجر الأحد الذي تحل فيه الذكرى السنوية لجلوس السلطان . ولم يحضر حفل الاستقبال الرسمي الذي أقامه وكيل الوالي بتلك المناسبة لتلقي التهاني سوى ثلاثة من الوجهاء العرب فقط . وكانت مقاطعة البقية تعبيرا عن عدم الرضا العام عن إجراءات الحكومة . تغديت مع السيد طالب بك في منزله بالبصرة في الثامن والعشرين الجاري وقرأ لي مضامين البرقيات التي تبودلت مع اسطنبول مساء السبت . لم أر بنفسي لحينه نسخة من القانون الجديد، ولكن السيد طالب بك أخبرني بوجود نقاط جيدة قليلة فيه، ونقاط سيئة أكثر، مما يجعله بمجمله غير مقبول للوجهاء العرب الذين يعارضون تطبيقه بصيغته الحالية . ويبدو ان صياغته تمت من قبل لجنة مؤلفة من أعضاء في جمعية الاتحاد والترقي ضمت سليمان نظيف الوالي السابق وعلاء الدين الوالي المعين . ولذلك فلا يحتمل ميل الأخير عند وصوله إلى مقر عمله لتلبية مطالب العرب الضاغطة من أجل تعديل بنود قانون اشترك هو في صياغته . علمت ان البنود التي يعارضها العرب بصورة رئيسة هي تلك التي تمنح الوالي بحكم منصبه حق التدخل في مداولات المجلس واستبعاد أي موضوع لا يقره من مناقشاته وتعليق جلساته وحله بالكامل حين يرى ذلك ملائماً. ويبدو أيضاً ان الوالي منح صلاحيات كاملة للتعامل مع أي عضو متمرد عن طريق قانون عرفي دون الرجوع للمحاكم ولمنع اجتماع خاص يعقده أكثر من خمسة من أعضاء المجلس كل مرة للمناقشة . وهكذا قيدت حرية النقاش لحد كبير،

ومنع المجلس عمليا من حرية الكلام وخفضت درجته كي يكون تابعا لارادة وهوى من قد يكون واليا معادياً. ويعلن وجهاء البصرة العرب يتقدمهم السيد طالب بك عدم قبولهم لأحوال تسلطية مثل هذه وعدم تسامحهم معها " .(50).

ومضى القنصل البريطاني في البصرة في تقريره قائلاً ان برقيات كثيرة أبرقت مساء السبت إلى الصدر الأعظم ووزير الداخلية تطالب بتعديل بنود القانون المعترض عليها .وقد جاء الرد على تلك البرقيات بعد طول انتظار قضاه المبرقون في مكـتب البرق .وكان على شكل برقية من وزير الداخلية إلى وكيل الوالي انتقدت انتظار لجواب فوري باعتباره مطلبا غـير دسـتوري .وأكدت وجوب وضع القانون بصيغته تلك موضع التطبيق وضرورة الشروع بعملية انتخاب أعضاء مجلس الولاية حسب بنود ذلك القانون .(51) وقد قرأ وكيل الوالي على الوجهاء المحتجين رد الوزير فرفضوا الاستجابة لفكرة المباشرة بعملية الانتخاب .وطالبوا بالغاء بندين من بنود القانون، تمكن أولاهما الوالي من اعلان الأحكام العرفية، وتنـيط الثانـية به رئاسة المجلس . كما طالبوا بمنح المجلس حق مساءلة الوالي وموظفين آخرين عن أمور تتعلق بادارة الـولاية وبحق صياغة مشاريع اصلاحية . (52)وأخبر وكيل الوالي الوزير برقياً بالأمر، فتلقى رداً فيه شئ من المرونة، حـيث ذكـر الوزير أن القانون المذكور سار بشكل جيد في ولايات أخرى مما يوجب تطبيقه في ولاية البصرة أيضاً بشكله الراهن، مع وجود إمكانية لتعديله من قبل مجلس المبعوثان في المستقبل(53) .

و لم يغـير ذلـك الرد موقف سكان البصرة الذي سجله القنصل البريطاني هناك على الشكل التالي : "بدا الوجهاء العرب ساخطين من هذه المعاملة، عازمين على القيام بانقلاب، وحذرني مخبري [هو السيد طالب نفسه على الأغلب كما يستشف من النص اللاحق]أنهم لن يترددوا في استخدام طرق عنيفة من أجل تحقيق أهدافهم . وبين لي أنهم كانوا بالفعـل منظمين ومستعدين لحدوث ذلك التطور، وأن اضطرابات خطيرة ستقع دون شك اذا أصر الوالي الجديد على اسـتخدام اجـراءات تعسفية لغرض تطبيق بنود القانون بصيغته الحالية . ومن المتوقع وصول الوالي على ظهر الباخرة الروسية " فيستا Vesta" المنتظرة هنا في الرابع أو الخامس من الشهر القادم .لقد أكد لي محدثي أن المصالح البريطانية سوف تحترم بقدر تعلّق الأمر بالوجهاء العرب أنفسهم، ولكنه اعترف صراحة بأن الحالة التي ربما تنشأ ستكون خارج نطـاق سـيطرتهم . وتوقع خطراً عاماً مفرطاً من جانب الطبقات الدنيا من السكان إذا غدت خارج نطاق السيطرة خـلال تلك الأحداث . ونظراً لهذه المعلومات المستمدة من المنبع الرئيس للحركة فقد ... بدا لي أن من المرغوب فيه تـوجه سفينة حرب بريطانية ـان كانت متوفرة – إلى البصرة بالتزامن مع وصول الباخرة الروسية "فيستا " من أجل حماية الأرواح والأملاك البريطانية اذا هددت ... وردت أنباء خاصة من اسطنبول مفادها ان الوالي الجديد سيكون على ظهر " فيستا "، ولكن الولاية لم تستلم لحينه اعلاناً رسمياً حول تعيينه، وهو اجراء غير مألوف للغاية بحد ذاته . ويفترض ان الحكومة تتصور ان وصوله سوف يأخذ السلطات والناس في البصرة على حين غرة . ولكن تحركاته تبدو أمرا مألوفا للعموم " (54).

ولا يخفـى مـا في حديث السيد طالب عن " الانقلاب " والاضطرابات الدموية من تهويل كبير، أراد به تخويف البريطانيين لعلهم يضغطون على السلطات العثمانية لتليين موقفها تجاه مطالبه . فقد وصل الوالي الجديد علاء الدين بك إلى البصرة بالفعل في الثاني من أيار – مايو دون أن تحدث أية اضطرابات (55) . وقد اعتبر المراقبون حينئذ تعيين ذلك

الـــوالي – وهو عربي من حمص – تنازلاً قدمته الحكومة الاتحادية للحركة القومية في البصرة .(56) ووصف القنصل الـــبريطاني في البصـــرة وصوله إلى هناك وما تلاه من تحركات، فقال : "كان في استقبال سعادته وكيل الوالي والقائد البحـــري والســـيد طالـــب بـــك ووجهاء آخرون من البصرة . وتبادل الوالي الزيارات معهم بعد ذلك . ورداً على استفســـاراته بـــين السيد طالب بك ان الاصلاحات مطلوبة بشكل عاجل، فوعد الوالي ببذل جهده من أجلها ضمن حدود القانون الجديد . في عشاء أقيم في منزل السيد طالب بك في الرابع من الشهر الجاري على شرف الوالي الجديد أشار الأخير إلى الوصول المتوقع لفريد بك، متصرف المنتفق السابق والمعين قائداً للفرقة العسكرية في البصرة الذي كان في طـــريقه اليها من بغداد . يخشى أهل البصرة كثيراً فريد بك لنزعاته المناوئة للعرب ويقال أنه معاد للسيد طالب، وان طـــرده من منصبه في المنتفق قد كان عقاباً له على ممارساته عير القانونية أثناء الانتخابات البرلمانية الأخيرة .ويعتقد ان قدومه ربما يضيف وقوداً جديداً للسخط ويسبب احتكاكاً أكثر . وقد وصل بالفعل على ظهر الباخرة القادمة من بغداد في الســـادس من الشهر الجاري، فأعلن الوالي أنه لن يتدخل في ادارة الولاية، وسيقصر نفسه على واجباته العسكرية . وأكـــد الـــوالي لمستمعيه ان تعيين القائد لم يكن بهدف قمع سكان البصرة، وأضاف أنه هو شخصياً يريد الخير للناس وسيعمل كل ما بطاقته من أجل صالحهم، وهو مستعد عند فشله لافساح المجال لشخص آخر إذا رغب الناس بذلك . وأخـــبر الـــوالي أيضـــا السيد طالب بك في السادس من الشهر الجاري أن مطالب العرب جميعها قد أحيلت الى وزير الداخلية " (57) .

ولقد كانت تأكيدات الوالي تلك تعكس نهجاً استرضائياً تبنته السلطات الاتحادية، لاحظه المقيم السياسي البريطاني في بغداد الذي كتب في خلاصته لشهر أيار – مايو 1913 ان تلك السلطات تحرص على ترضي السيد طالب واقناعه بالكـــف عـــن معارضته الحادة (58) . ولكن تلك السلطات أرادت ذلك الاسترضاء اللفظي وسيلة تخدير لخصمها السيد طالب قبل تعريضه لعملية ضغط مكثف . وكان ركنا تلك العملية يتمثلان في تعيين فريد بك في البصرة وتحريك عجمـــي الســـعدون الزعيم العشائري القوي الموالي للاتحاديين والمعادي للسيد طالب نحو تلك المدينة أيضاً. فقد أرسل عجمـــي رســـائل إلى مختلف وجهاء البصرة وشيوخ عشائرها ومختاري القرى فيها تشير إلى وجود مؤامرات تحاك في البصرة، وأنه قد أبلغ اسطنبول عنها، وسيتوجه بنفسه إلى البصرة لمعاقبة المتآمرين . وحين علم الوالي بأمر تلك الرسائل كـــتب إلى عجمي محذرا من اقترابه على رأس اتباعه، ناصحا إياه بالحضور بمفرده إذا كان يريد اظهار ولائه للحكومة .ورجح القنصل البريطاني في البصرة عدم استجابة عجمي ذلك الاقتراح نظراً لما حل بوالده حين جاء إلى البصرة سنة 1911 حيث ألقي القبض عليه وسيق إلى حتفه .وأضاف القنصل القول بأن متصرف المنتفق أفاد بأن عجمي قد تحرك بالفعل مع أتباعه باتجاه البصرة . أما السيد طالب فقد رد على ذلك التطور بالتحرك في مسارين، أولهما محاولة الاتصال بعجمـــي نفســـه للتفاهم معه، وثانيهما تعبئة أنصاره في القرى القريبة من مدينة البصرة استعداداً للدفاع عنها إذا أصر عجمي على الزحف نحو هدفه . وفي غضون ذلك وصلت إلى ميناء البصرة الباخرة الحربية البريطانية " ألرت Alert

"ورابطـــت هناك منذ الرابع من أيار – مايو (59) . وقد أظهر حرص الوالي علاء الدين بك على تثبيط عزيمة عجمي عدم اشتراكه بالخطة الاتحادية السرية لكسر شوكة السيد طالب أو للتخلص منه(60).

ولقـــد أفلح ذلك الضغط المركز في تليين موقف السيد طالب تجاه قانون مجالس الولايات، فقد غدا أقل تصلباً في معارضـــته حســـبما لاحظ المقيم السياسي البريطاني في بغداد (61). ولكـــن حد في غضون ذلك حدث قوى عزيمة السيد طالب وأنصاره وفت في عضد الاتحاديين وأنصارهم في المنطقة . وتمثل ذلك الحدث في انتزاع عبدالعزيز آل سعود للاحســـاء مـــن أيدي العثمانيين . فقد أدرك السيد طالب تأثير ذلك الحدث على عرب العراق وعلم بخوف السلطات الحكومـــية مـــن احتـــمال وقوع اضطرابات في البصرة بتأثيره مما جعلها تقـــرر إرسال تعزيزات حربية من بغداد إلى البصرة (62). وقد قرر السيد طالب استغلال حالة البلبلة المسيطرة على السلطات من جراء ذلك الحدث لحسم الموقف في البصرة قبل وصول التعزيزات المنتظرة .فدبر اغتيال القائد فريد بك ثم نجح في الوصول إلى تسوية مع خصمه عجمي السعدون . وسجل القنصل البريطاني في البصرة تلك التطورات وعلق عليها في تقرير كتبه في الخامس من تموز 1913، فقال : "يبدو طالب بك معززاً لمركزه بمقدرة وبراعة كبيرتين . فقد نجح باستخدام طرائق شرقية في الحاق هزيمة كبيرة بمعارضـــة محلية، مما جعل ضباط الحامية [من العرب] يعلنون الآن صراحة وقوفهم الى جانبه .وتبدو السلطات التركية قابلة للوضع تكتيكياً . ان حادثة عجمي التي انتهت باغتيال القائد العسكري ومتصرف المنتفق هي جانب ثانوي فقط للقضـــايا المعلقة التي تدور حول اصلاح الولاية واللامركزية القصوى التي يعتزم حزب القوميين العرب المزيف self-styled مناقشتها مع الحكومة التركية . ولكن عدد العرب المتنورين في هذه المنطقة ضئيل، والحركة المتمركزة بصورة رئيسة حول شخصية السيد طالب بك تبدو لي مؤسسة على الأغراض والمطامح الشخصية لهذا السيد أكثر من أن تكون مؤسسة على مطلب عام باحداث تغييرات سياسية ذات طبيعة راديكالية .تبدو الأزمة الآن ماضياً، اذ ابتدأت في الثالث مـــن الشهر الجاري انتخابات المجلس العام للولاية طبقاً لبنود القانون الجديد في صيغته الأصلية غير المعدلة . فقد دعي الناخـــبون الثانويون المدرجون في الجدول البرلماني إلى السراي من قبل الوالي المتلهف لدعوة المجلس الجديد بأسرع ما يمكـــن ووجهوا للتصويت لثمانية أعضاء يمثلون البصرة . أبقيت تلك الاجراءات سرية، ولكني علمت ان أعضاء يمثلون المنـــتفق والعمـــارة ســـوف ينتخبون في ذينك اللواءين ثم يرسلون إلى هنا . يقول لعرب إنهم حين يجتمع المجلس العام سيطالبون بالإصلاحات التي يريدونها . ويرجح _ طبقا لإشاعة رائجة _ أن تنشأ مشكلة إذا لم يفتح الطريق أمام تلك الإصلاحات "(63).

ويلفت النظر في النص السابق تشكيك القنصل البريطاني بصدق إيمان قوميي البصرة بمطالبهم المعلنة، وترجيحه ان تحركاتهم كانت نابعة فحسب من المطامع الشخصية للسيد طالب .كما يلفت الانتباه أيضاً تبخر تهديدات السيد طالب السابقة باللجوء إلى العنف عند إصرار السلطات على إجراء انتخابات مجلس الولاية حسب بنود القانون المعترض عليه. فقد جرت تلك الانتخابات دون حدوث شيء . والغريب انها جرت بعد ما مال ميزان القوى في البصرة لصالح السيد طالـــب من جراء اغتيال فريد بك كما مر . ولعل السيد طالب أدرك بدهائه أن ما تم إنجازه كان كافياً في حينه، ولا

يستحســن لمصلحته مواصلة الضغط على جرح السلطات الاتحادية الدامي . لا سيما ان الانتخابات أسفرت عن فوز أتباعه بالمقاعد المخصصة للواء البصرة في المجلس المنتظر .

ويحســن هنا الرجوع لمتابعة تسجيل القنصل البريطاني للأحداث الجارية في البصرة حيث كتب في التاسع عشر من تموز 1913 : " أنجزت الآن انتخابات المجلس العام لهذه الولاية وأختير المندوبون الذين يمثلون البصرة والعمارة والمنتفق والقــرنة والفاو . وفيما يتعلق بالبصرة فإن الفائزين جميعهم أصدقاء للسيد طالب بك، وليس هناك شك في أنه ضمن انتخابهم بخطة موضوعة مسبقاً . ولا يبدو هناك احتمال لاجتماع المجلس في الوقت الحاضر، إذ أن أفكار الناس متجهة وجهة أخرى . بين السيد طالب – رداً على استفساري – ان الحكومة المركزية الحالية تعامل عرب البصرة على أنهم " رجعيون "، لذا فان أفكارها مشغولة الآن ب (انقلاب) أكثر من انشغالها ب (انتخاب). وقد أخبرت ان السيد طالب بــك – خلال مناقشته وجهاء البصرة في الاصلاحات المحتمل تضمينها في البرنامج الذي سيطرح أمام المجلس العام عند انعقـــاده – أوضح ان العرب لا ينوون الوقوف ضد الحكومة إذا مالت لمنحهم درجة معقولة من الاصلاحات .ولكنهم لـــن يترددوا في القتال بكل الوسائل المتاحة اذا رفضت مطالبهم بهذا الخصوص . " وعلق القنصل على تلك المعلومات بقوله :- "تتطلب المصلحة العامة بشكل عاجل ادخال مشروع اصلاحات عملية شاملة في هذه المنطقة غير المتحضرة . ومـــن غير المحتمل تهدئة القلق العربي بعمليات اراقة دماء وقمع استبدادي تدمنها الحكومة الاتحادية الحالية إدماناً كبيراً على ما أخشى، وهي لا تفيد إلا في تنفير عواطف سكان ربما يكونون مخلصين لو عوملوا بطريقة أخرى، حيث يرجح ولاؤهـــم لحكـــومة خـــيرة وعادلة . وأظن ان الأمل مازال باقياً باقامة ادارة سليمة ومستقرة اذا أبدى من في السلطة اســـتعدادهم لاتباع طرائق معقولة وتحظى بالمزيد من القبول العام. وإذا كنت قد أجدت فهم السيد طالب بك فان هذا هو الهدف الرئيس وراء الهياج الذي يتولى قيادته، بعد صرف النظر عن أهدافه ومطامحه الشخصية . ولكنه لسوء الحظ أضاف وجها آخر للمشكلة مفاده ان ما لا يستطيع العرب الحصول عليه بوسائل معتدلة فسيقاتلون من أجل نيله عنوة. وســـيرجعنا هذا الى طرائق العصور الوسطى التي لا تخلي مكانها بسهولة للأساليب المعتدلة التي تعززها بالتقادم أعراف الأزمنة المعاصرة " (64).

ومـــع أن تهديدات السيد طالب تلك لم تنفذ، إلا أنه استمر في ممارسة الضغط على السلطات الاتحادية منتهزا أية فرصـــة يراها ملائمة لذلك .ومن ذلك تأليبه سكان مدينة البصرة ضد فكرة بيع أملاك السنية [أملاك السلطان السابق عبد الحميد الثاني] في العراق . فقد راجت في أواخر شهر تموز – يوليو 1913 اشاعة تفيد عن نية الحكومة بيع تلك الأملاك إلى أجانب قيل إنهم يهود لندنيون . وأحدثت الإشاعة هياجاً في المدينة، اجتمع على اثره الوجهاء برئاسة السيد طالـــب، وأعلـــنوا ان ذلك أمر لا يمكن السماح به . ولم يكتف أولئك المحتجون بذلك الرفض بل تجاوزوه ليبرقوا إلى البـــاب العالي في الثالث والعشرين من الشهر المذكور مطالبين بسحب الوالي وقائد القطعات العسكرية والقاضي فضلاً عـــن عـــدم إرسال شيء من إيرادات ولايتهم إلى الخزينة المركزية في اسطنبول . فردت اسطنبول على ذلك بأمر الوالي بـــاعلان الأحكام العرفية،وبوعده بتلقي الدعم من بغداد إذا لم يكن قادراً على فرض تلك الأحكام بما لديه من قوات .

وتــوقفت في غضـــون ذلـــك كافة الأعمال في المدينة، إذ أمر السيد طالب أصحاب الحوانيت باغلاقها، ومنع سواق العــربات " الكــواري "وملاحي القوارب " الأبلام" من ممارسة أعمالهم المعتادة . وترتب على ذلك شيوع اعتقاد بين ســكان المدينة عن قرب حدوث اضطرابات بين مؤيدي السيد طالب ومعارضيه(65). ولكن ذلك الاعتقاد لم يتحقق في النهاية .

تنازلات الاتحاديين للحركة العربية وصداها في البصرة :

شهدت العلاقة بين الحكومة الاتحادية والحركة القومية العربية العامة في هذا الوقت شيئا من الانفراج نتج عنه اتجاه لتلبـــية بعـــض مطالـــب تلك الحركة . فقد استلم والي بغداد في مطلع شهر آب – أغسطس 1913 برقية من وزير الداخلية تتضمن خطة صلاحية تزمع الحكومة تطبيقها . وتألفت الخطة من ديباجة تؤكد أن هدف الحكومة الرئيس هو تطوير المملكة وتحقيق الرخاء والسعادة لرعاياها .وجاءت بعد الديباجة البنود الآتية :

1- إنفاق إيرادات الأوقاف كلها مستقبلاً في الأماكن التي عقد فيها الوقف ولخدمة الأغراض التي حددها الواقف .
2- أداء الخدمة العسكرية الالزامية ضمن حدود المفتشية العامة التي يتبعها الجند (66) إلا حين يتحتم حشد قوات على الحدود يتجاوز عددها فيالق تلك المفتشية .
3- جعــل التعلــيم باللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية في الولايات العربية، ولكن لا تغيير في لغة التعليم في المدارس الاعدادية الحكومية . وستبقى اللغة التركية لغة رسمية في مراكز الولايات .
4- يكــون الموظفون الحكوميون العاملون في الولايات الناطقة باللغة العربية ملمين باللغة العربية فضلاً عن التركية . ولن يعين هناك موظف غير ملم بالعربية فعلاً .
5- يستضاف في كل ولاية خبراء أجانب بأعداد تحددها الحاجة من أجل تسريع تنفيذ الاصلاحات المطلوبة فيها .
6- تقدم الخزينة المركزية منحاً إضافية إلى الولايات لتمكينها من الإنفاق على التعليم وبقية الأعمال العامة التي تتجاوز قدرتها المالية المحلية .
7- توضع قرارات المجالس العامة للولايات موضع التنفيذ بشكل فوري (67).

ولم يلبث وزير الداخلية طويلاً حتى أتبع برقيته السابقة بتوضيحات واضافات جاء فيها :

1- عدم تطبيق شرط الالمام باللغة العربية على الولاة الموجودين على رأس عملهم فعلياً في الولايات العربية .
2- يتم تعيين القضاة ورؤساء المحاكم العدلية في الولايات العربية بإرادة سلطانية . وتتم بقية التعيينات محلياً .
3- سيكون ثلاثة من وزراء الدولة عرباً، وسينال العرب نسبة من مناصب الدولة العليا الأخرى .
4- يعين من العرب خمسة ولاة وعشرة متصرفين على الأقل .
5- سيكون تمثيل العرب في مجلس الأعيان بنسبة عضوين عن كل ولاية عربية .
6- ستتم المعاملات الرسمية مستقبلاً باللغة العربية في الولايات الناطقة بالعربية، على أن ينفذ ذلك بشكل تدريجي .
7- توسع صلاحيات المجالس العامة للولايات، على أن تتألف من أعضاء مسلمين وغير مسلمين بالتساوي .

وقــد علــق المقيم السياسي البريطاني في بغداد على تلك القرارات بقوله :- "من غير المتوقع أن يكون لهذا البرنامج الاصــلاحي تأثير كبير على الذهن العام الى أن تتخذ خطوات جدية لتنفيذه . إذ مل الناس من وعود إصلاح لفظية، والعــرب بشكل خاص مشربون بفكرة مفادها أن نية جمعية الاتحاد والترقي هي خداعهم لابقائهم هادئين وليس تلبية طموحاتهم . وأعتقد ان الفجوة السياسية بين التركي والعربي أوسع وأعمق – على الرغم من وحدة الدين – من تلك التي تفصل بين الانكليزي والهندي المسلم . وقد يبدو ذلك تناقضاً ظاهراً، ولكن حقيقته ربما ستغدو أكثر جلاء بمرور السنين " (68) .

وأوضــح القــائم بالأعمال البريطاني في اسطنبول الأحداث الكامنة خلف توجه الحكومة الاتحادية نحو قطع تلك الوعــود الاصلاحية . وترتبط تلك الأحداث بانعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس في حزيران ــ يونيو 1913. إذ بادرت السلطات الاتحادية إلى إيفاد مبعوثين عنها إلى باريس أجروا مباحثات مع القادة العرب ونجحوا في اجتذاب " الأكثــر شــبابا " من بينهم على حد قوله . وتوصلوا إلى عقد ميثاق معهم يلبي للعرب بعض مطالبهم الاصلاحية . وتكــرس الاتفــاق بــين الطرفين في مأدبة أقامها زعماء جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول على شرف أولئك القادة العرب. وقد صدرت إرادة سلطانية بإنفاذ الإصلاحات المتفق عليها بين الطرفين، وهي :

1- عــدم تسليم واردات الأوقاف المحلية في الولايات العربية الى وزارة الأوقاف في اسطنبول، وتسليمها إلى مجالس اســلامية محلــية تــنفق من تلك الأموال على تأسيس وادارة مدارس إسلامية على غرار المدارس التي أسسها النصارى واليهود .

2- أداء المجــندين خدمتهم العسكرية الالزامية في مناطقهم وقت السلم حين لا تكون هناك ضرورة لتعزيز حاميات الحــدود، علــى أن تختار الحاميات التي تقام في الحجاز واليمن وعسير ونجد من جميع فرق الدولة كلها بشكل تناسبي .

3- جعــل اللغــة العربية لغة التعليم في كافة مدارس المناطق ذات الأغلبية السكانية العربية . ويطبق القرار فورا في المــدارس الابتدائية والثانوية مع بقاء تعليم اللغة التركية فيها اجبارياً باعتبارها لغة رسمية . وسيطبق القرار لاحقا في المدارس العالية .

4- معــرفة اللغة العربية ضرورية لكافة الموظفين الحكوميين العاملين في الولايات العربية إلى جانب اللغة التركية . وســتختار الحكومة المركزية القضاة والموظفين الذي يعينون عادة بارادة سلطانية، في حين ستوضع أنظمة خاصة لكيفية اختيار موظفي الولايات الأدنى مرتبة .

ومضى القائم بالأعمال في روايته قائلا أن زعماء الحركة القومية العربية أعلنوا ان "المندوبين الشبان" الذين وقعوا ذلك الميثاق مع جمعية الاتحاد والترقي لا يمثلون العرب . وأعقب ذلك الاعلان وصول مندوبين عرب جدد إلى اسطنبول طالــبين توســيع أســس ذلك الاتفاق . فاستغل طلعت بك وزير الداخلية وزعماء اتحاديون آخرون الفرصة لضرب الواصــلين الجــدد بســابقيهم مستخدمين لعبة التناقضات الدينية بين المسلمين والنصارى . وترتب على ذلك غضب

المندوبين الواصلين تالياً ورحيلهم عن اسطنبول مظهرين اشمئزازهم معلنين تصميمهم على المطالبة باجراء اصلاحات أوسع نطاقاً (69).

وكان لتلك التطورات التي جرت على الساحة القومية العربية العامة صداها لدى قوميي البصرة بزعامة السيد طالب. إذ قامت " جمعية البصرة الاصلاحية " باعلان برنامجها الاصلاحي الذي تسعى لتطبيقه . ولا يستبعد أن يكون ذلك بالتنسيق مع قادة الحركة القومية العربية خارج العراق . ووزعت الجمعية ذلك البرنامج مطبوعا في كراس كما نشرته على صفحات جريدة " الدستور " الصادرة في البصرة في التاسع من آب 1913 [بالتقويم الرومي، وهو يقابل الثاني والعشرين من الشهر نفسه بالتقويم الغريغوري] . وهناك نصان لبنود ذلك البرنامج، ورد أحدهما في تقرير رفعه القنصل البريطاني في البصرة للقائم بأعمال سفارته في اسطنبول في الثامن والعشرين من الشهر المذكور .(70) وورد الثاني في تقرير رفعه وكيل القنصل الأمريكي في بغداد الى القائم بأعمال سفارته في اسطنبول في الخامس والعشرين من أيلول – سبتمبر 1913 (71) . وستتم فيما يلي المقارنة بين النصين لبيان ما بينهما من فروق لعلها ناشئة عن التباين في طريقة الترجمة من العربية الى الانكليزية . وسيشار الى أولهما باسم "النص الانكليزي " وللآخر باسم " النص الأمريكي" .

1- العراق أرض عثمانية تستظل براية الهلال .

2- لا تمنح امتيازات للأجانب في العراق، ويحمى البلد من مكائدهم،ويحارب النفوذ الأجنبي بكل طريقة ممكنة.[ولم يرد في النص الأمريكي لهذا البند ذكر لطرد الأجانب] .

3- ان تركيا دولة عثمانية تحت سلطة الخلافة وليست امبراطورية . [وكانت صياغة هذا البند في النص الأمريكي هي :- الدولة العثمانية مملكة اسلامية تحت سيادة خليفة مسلم هو السلطان المعظم وليست امبراطورية كما يعتبرها أناس جبناء] .

4- الأمور المتعلقة بالسلطة العليا وفروعها مثل الأمور الخارجية والحربية والكمارك والبريد والبرق والقوانين والأنظمة والرسوم والضرائب تختص بها الحكومة المركزية .ويختص المجلس العام للولاية بالأمور المحلية التي تتعلق بالشؤون الداخلية للولاية وادارتها وتقدمها .

5- ينفذ الوالي أوامر الحكومة المركزية وأوامر المجلس العام للولاية .ويقوم بتعيين الموظفين بعد مشاورة المجلس العام مع التقيد بالشروط الأخرى التي يحددها قانون خاص .[ويختلف منطوق هذا البند في النص الأمريكي بقوله ان الوالي يعين الموظفين الذين يختارهم المجلس العام عدا من يتم اختيارهم بشكل خاص] .

6- ينتخب للمجلس العام عضو واحد عن كل اثني عشر ألفا وخمسمائة نسمة من سكان الولاية ولمدة أربع سنوات. [وجاءت صياغة هذا البند في النص الأمريكي كما يلي : يتألف المجلس العام من أعضاء منتخبين لمدة أربع سنوات تحت رئاسة واحد منهم وبواقع عضو واحد عن كل 12500 نسمة] .

7- للمجلس العام صلاحية كاملة في مناقشة كافة أمور النفع الداخلي في الولاية . ويمكنه اصدار قرارات ووضع أنظمة داخلية وتأسيس شركات تجارية وصناعية وزراعية ومنح امتيازات في تلك المجالات وتحديد رواتب

المـــوظفين والغـــاء الوظائف غي الضرورية واستجواب الوالي حول أية نقطة وطلب عزله عند لضرورة ووضع الميـــزانية وتأســـيس المدارس وتطهير [كري] القنوات وتجفيف الأهوار واستغلال المناجم ومنح امتيازات لهذا الغرض وبناء الطرق والجسور وتأسيس مصارف ومدارس زراعية وتوزيع البذور وتشجيع الصناعة وانشاء غرفة تجـــارة وبورصة وتطوير التجارة واقامة معارض ومسابقات صناعية وزراعية وبناء مستشفيات ومياتم وملاجئ للفقراء . [وهناك فروق في صياغة هذا البند في النص الأمريكي هي : وورود عبارة " عزل الموظفين الفائضين " بدلا من عبارة " الغاء الوظائف غير الضرورية " . وورود عبارة " وله سلطة التشاور مع الوالي فيما يراه مناسبا " بدل عبارة " استجواب الوالي " . واضافة عبارة " وانشاء سكك الحديد " بعد كلمة " الأهوار" .] .

8- للمجلس العام توسيع قوتي الدرك والشرطة وبناء مخافر حيثما يتطلب الأمر، وتعطى الأفضلية عند اختيار الشرطة للجنود الذين أنهوا خدمتهم العسكرية . وللمجلس اجراء مسح لأراضي الولاية وتسجيلها بكاملها، ويمكنه تغيير طريقة جباية الأعشار والضرائب الأخرى .

9- المجلـــس العـــام مستقل في كافة أعماله، وله السلطة على الموظفين جميعهم، ولا يضم بين أعضائه أي موظف أو مقاول متعاقد مع الحكومة . [انفرد النص الأمريكي بذكر هذا البند] .

10- ينتخب المجلس العام من بين أعضائه لجنة لمدة أربع سنوات . [جاءت صياغة هذا البند في النص الأمريكي كما يلـــي :- ينتخب المجلس بالتصويت من بين أعضائه لمدة سنة واحدة لجنة مؤلفة من أربعة أعضاء أحدهم رئيس المجلس] .

11- تـــراقب اللجنة مارة الذكر تنفيذ قرارات المجلس العام وترشد الولاية لما ينبغي عمله، كما تضع لمقاييس وتعين المهندسين وتدعو المجلس العام لعقد الاجتماعات الاستثنائية وتعنى بالأمور العاجلة حين لا يكون المجلس منعقداً . [ومنطوق هذا البند في النص الأمريكي هو : تتأكد هذه اللجنة من تنفيذ القرارات وتفتش كافة الأعمال العامة في الولاية وتنظم المقاييس وتعين المهندسين وتعمل بدلاً من المجلس في الأحوال الطارئة وتصدر الأوامر في الأمور العاجلة حين لا يكون المجلس العام منعقدا] .

12- تسلم الأراضي التي يعد سند ملكيتها باطلا وأراضي " الميري" في الولاية إلى المجلس العام الذي يمكنه بيع ما عليه طلـــب مـــنها أو بناؤه، ويمكنه توزيع الأراضي الشاغرة على العشائر . [ويقضي هذا البند في النص الأمريكي بتسليم كافة الأراضي البور والأراضي الحكومية في الولاية إلى المجلس العام الذي سيبيع جزءاً منها ان كان ذلك مجديا ويوزع ما هو صالح للزراعة ويوزع الأراضي الخضراء على العشائر لغرض استيطانها وزراعتها. ويجب عليه إجراء إحصاء للسكان] .

13-تســـلم كافة أملاك الوقف الاسلامي إلى مجلس الطائفة المعنية، وتدار طبقاً لوصية الواقف من قبل جمعية ملائمة منتخبة لفترة محددة .وتخصص أية فوائض زائدة لمصلحة التعليم . [ومنطوق هذا البند في النص الأمريكي هو : يجـــب تســـليم كل الوقف الاسلامي في الولاية فضلا عن أوقاف الجماعات الدينية الأخرى إلى المجالس الدينية

المختصة . وسيوضع إنفاق إيرادات تلك الأوقاف في أيدي لجان منتخبة لمدة محددة . ويجب أن يكون أعضاء تلك اللجان متصفين بالورع والأمانة بما يجعلهم أهلا للثقة بتوليهم إنفاق إيرادات الوقف على الغرض المخصص له مثل ادارة المدارس ... الخ] .

14- تعين الحكومة المركزية الوالي بشرط أن يكون من أهل العراق ومطلعاً تماماً على أحوال العشائر المحلية وعاداتها . كما تعين الدفتردار والقاضي والمتصرفين ومديري الكمرك والبريد والبرق بعد التشاور مع مجلس الولاية العام عن طريق الوالي . ويجب أن يكون الوالي وأولئك الموظفون ملمين باللغة العربية الماماً تاماً .أما بقية الموظفين فيعينهم الوالي بعد اجراء الامتحان اللازم ويصدر قرار بذلك من المجلس العام أو لجنته، وينبغي أن يكونوا عارفين للهجة المحلية الدارجة . وتبلغ الحكومة المركزية في اسطنبول بقرارات التعيين تلك، وتعتبر مقرة واقعيا **ips facto** إذا لم تصدر الحكومة المركزية إرادة بإقرارها خلال أربعين يوماً من تاريخ الإبلاغ . [ويختلف منطوق هذا البند في النص الأمريكي بالقول إن الحكومة المركزية عند تعيين الدفتردار وغيره من كبار موظفي الولاية تتشاور مع المجلس العام "و" الوالي] .

15-يمكن للوالي ابتداء سحب يد أحد الموظفين على أن يعرض الأمر فوراً على المجلس العام، فإذا وجد الإجراء غير عادل يعاد الموظف المعني إلى وضعه السابق، وإن كان هناك أساس للمقاضاة تحال أوراق القضية الى المحاكم . [ورد هذا البند في النص الانكليزي فقط] .

16-تعيين وعزل الموظفين في الولاية يحكمه قانون خاص، ولكن الوالي لا يمكن عزله إلا بأغلبية ثلثي أصوات كافة أعضاء المجلس العام .

17-تصنف إيرادات الولاية صنفين أحدهما يرسل كله الى الحكومة المركزية ويشمل إيرادات الكمارك والبريد والبرق وبدل الاعفاء من الخدمة العسكرية الالزامية . أما الآخر وهو يشمل بقية الإيرادات فيخصص للولاية وينفق فيها.

18- تؤسس الحكومة محاكم صلح **Juges de paix** .

19- تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية في كافة الدوائر والمحاكم .

20- تعدل القوانين المدنية والجزائية طبقا لمبادئ الشرع قدر الامكان .

21- تقام محكمة استئناف للأمور المدنية والجزائية في الولاية، في حين ترفع قرارات المحاكم الشرعية لعرضها على شيخ الاسلام .

22- تخضع المحاكم والدوائر المدنية لتفتيش أشخاص ملائمين يجيدون العربية . [منطوق هذا البند في النص الأمريكي هو : يعين محام خاص ملم باللغة العربية والعادات المحلية لتفتيش المحاكم المدنية والشرعية] .

23- يؤدي المجندون خدمتهم في ولاياتهم أثناء السلم، ويمكن ارسالهم لأي مكان آخر خلال الحرب .

24- يستخدم الضباط الناطقين بالعربية في ولاياتهم لتجنب سوء التفاهم بين السكان والجند .

25- تدرس كافة الآداب والعلوم باللغة العربية في المدارس مع ايلاء الاعتبار اللازم للغة التركية والتربية الدينية .

26- يعفى المزارعون من الخدمة العسكرية الالزامية لمدة عشرين سنة ويعفى منها البناءون لمدة ثلاثين سنة .

27- يضع المجلس العام أنظمة تطبق في كافة الدوائر الحكومية والمحاكم من أجل تبسيط الاجراءات الرسمية وتسهيلها .
28- حظر ممارسة البغاء على النساء المسلمات (72) .

وبعد استعراض نص البرنامج الاصلاحي الذي أعلنته " جمعية البصرة الاصلاحية " انتقل الدبلوماسيون البريطانيون والأمريكان لإبداء آرائهم وتعليقاتهم عليه .فرأى القائم بالأعمال البريطاني في اسطنبول أن النقطة الأساسية في البرنامج تتمثل في البند السادس عشر الذي ينص على منح المجلس العام حق طرد الوالي بأغلبية ثلثي الأصوات . وأضاف ان الهدف هو " وضع قيد على الصلاحيات الواسعة للوالي المرشح من قبل المجلس المركزي لجمعية الاتحاد والترقي التي لا تتمتع بحب كبير في الولايات العربية . ربما يلاحظ أن النزعة الضمنية في برنامج البصرة في حقيقتها نزعة مقت لدور جمعية الاتحاد والترقي أكثر مما هي نزعة انفصال عن الحكومة العثمانية (73) . أما القنصل البريطاني في البصرة فقال : ان البرنامج " يبدو شاملاً وواسع النطاق، ولكني لا أظن ان المشروع يمثل الحد الأدنى الذي لا يمكن تخفيضه لمطالب العرب . فقد استنتجت من محاورات سابقة مع السيد طالب بك أنه وأصدقاءه سوف يقنعون بما هو أقل بكثير وانهم مستعدون تماما لمزج نبيذهم بالماء . ولكن يحتمل ان النقاط التي تعيرها الاصلاحات أهمية قصوى هي نفسها التي لدى حكومة الاتحاد والترقي أقل امكانية لقبولها . وتتمثل بالنقاط المتعلقة بمركز الوالي وصلاحياته حيث يريد العرب جعله تابعا تبعية تامة للمجلس العام إلى حد امكانية عزله بأغلبية ثلثي أصوات المجلس بكامل أعضائه . وتتمثل ثانياً في حق استخدام القسم الأكبر من إيرادات الضرائب لأغراض محلية كما ورد في البند السابع عشر، كما تتمثل في صلاحيات المجلس العام الواسعة حسبما حددت في البندين السابع والثامن . ويلاحظ ان العرب لا يريدون مساعدة أجنبية لتطوير بلدهم، فطبقا للبند الثاني يحرم ذلك على الأجانب و يبعدون ويقمع نفوذهم بكل وسيلة متاحة ويحمى الوطن من مكائدهم ولا يمنحون امتيازات . وأكاد أعتقد بأن هذا البند لا يعبر عن رأي السكان الاجماعي لأني أعرف من تجربتي الخاصة ان الشعور العام – باستثناء عنصر صغير متعصب قومياً مؤلف بصورة رئيسة من ترك وموظفين حكوميين – ليس معادياً بشكل عام لتطوير العراق تحت رعاية أجنبية . ويوالي العرب الانكليز وينجذبون كثيراً نحو الهند، ولكنهم أقل ولعا بالألمان . وتبدو الإصلاحات الأخرى المسطورة في البرنامج ذات طبيعة عملية والحاجة ماسة لها، وهي تلك التي تتعلق بالاستخدام الرسمي للغة العربية وتبسيط العمل في الإجراءات الرسمية ومراقبة المحاكم ودوائر الحكومة وادارة الوقف التي علمت بأنها سيئة بشكل يرثى له " (74) . ولا بد من الالتفات الى ترويج القنصل لزعم ولاء العرب للانكليز دون ابداء أية بينة على ذلك .

وأسهم المقيم السياسي البريطاني في بغداد في التعليق على ذلك البرنامج فقال ان بعض المطالب الواردة فيه متطرفة لدرجة لا تجعل من الممكن توقع قبول الحكومة لها . أما ما ورد فيه عن بقاء العراق أرضاً عثمانية تحت ظل راية الهلال وعن مقاومة الأجانب وطردهم فهو في رأيه مجرد طلاء حلو لحبات الدواء المرة التي يراد للحكومة أن تبتلعها(75). وتناول القنصل الأمريكي في بغداد ذلك البرنامج بالتعليق فقال ان مضمونه يعادل استقلالاً ذاتياً كاملاً . وأضاف ان الوكيل القنصلي الأمريكي في البصرة أبلغه بأن تلك المطالب قد أبرقت إلى اسطنبول . ومضى القنصل للحديث عن

السيد طالب بقوله : " ان رئيس جمعية البصرة الاصلاحية وروحها المحركة هو السيد طالب سليل أقدم العوائل المسلمة في البصرة وأكثرها نفوذا وهي عائلة الرفاعي التي تحمل هناك اللقب الديني الأسمى(النقابة) فغدت تسمى عموما نتيجة لذلك عائلة (النقيب) . وتتبع هذه العائلة باستمرار منذ سنين كثيرة دبلوماسية وسطية ذكية بين انكلترا وتركيا لأنها تتأثـــر بالسياسات التركية مثلما تتأثر بالسياسات البريطانية في البصرة والخليج العربي، كما تؤثر فيها بصورة متساوية. والســـيد طالب شخصيا رجل ذكي جدا مفعم بالحيوية والنشاط، ولكنه إلى حد بعيد متآمر وكثير الوساوس في أعماله الخاصة والعامة على الاطلاق . وكان يعدُّ حتى الوقت الحاضر رئيسا لحزب كامل باشا الليبرالي [الحر المعتدل]في البصرة، وكان بصفته هذه بالطبع معارضاً قوياً للحزب الآخر وهو جمعية الاتحاد والترقي " (76).

ولم يكـــتف السيد طالب باصدار ذلك البرنامج الاصلاحي، بل أردفه ببيان صادر باسم جمعية الاصلاح وزع في أواخـــر الشـــهر نفسه على أفراد القوات المسلحة العاملة في العراق وعلى أبناء العشائر . وقد تابع القنصل البريطاني في البصـــرة ذلـــك البيان فذكر انه حمل ختم المركز الرئيس ل " الجمعية الاصلاحية الوطنية " وعنون إلى "الجيش والأمة العـــربية" . واستهل البيان بمدح لدور الجيش في الدفاع عن الدين والخلافة والوطن، والثناء على أفراده لما يتحملونه من عبء وما يعانونه من عوز . وانتقل البيان بعد ذلك للحديث عن الشعب العربي حامدا الله على ما حباه من سجايا كريمة، مؤكدا انه شعب مختار حيث اصطفى من بين صفوفه قبيلة قريش ثم اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم من بين صـــفوفها لاقامة أركان الاسلام والدعوة إليه . وحث البيان الشعب العربي -باعتباره ذا رسالة تاريخية – على التأسي بأســـلافه الذين حاربوا الكفار وقهروهم وأخضعوا أباطرتهم وأزاحوا سكان الغرب عن أراضيهم واحتلوا مدنهم حتى أصـــبحت بلدانهم ارثا لأتباع محمد . واستغرب البيان أن يدعى أحفاد أولئك السلف فلا يلبون تاركين حقوقهم تداس وبلـــدهم يباع ودينهم يحتقر وشرفهم ينتهك وأرواحهم تستعبد دون تحريك أصبع واحد لمنع ذلك، وتذهب النداءات المـــوجهة الـــيهم أدراج الـــرياح كما لو كانوا لا يدركون ما يدور حولهم . لقد تحجرت أذهانهم أو صمت آذانهم أو تـــبددت شجاعتهم وكلت سيوفهم وتكسرت أسنة رماحهم . واذا كانت شجاعتهم قد زايلتهم واستسلموا للرقاد في كـــنف الـــرفاهية وفضلوا الحياة على الكرامة فستوقظهم الأحداث بشكل عنيف قريبا . إذ سيعرفون جيداً ما سببته " العصابة الخائنة" التي دمرتهم وباعت بلدهم ووضعت أعنة الحكم في أيد غير أمينة وجردت الخلافة الاسلامية من سلطتها وأســـاءت ادارة شؤون الدولة وشنقت رجالاً أبرياء لأنهم وقفوا حجر عثرة في طريقها ونفت مئات آخرين، وبلغ بها الأمـــر الآن حد التهديد بعزل السلطان وقتله . لقد باع أولئك الأوغاد الاستقلال إلى بلغاريا والبوسنة والهرسك ونهبوا يلـــدز وســـرقوا مجوهرات السلطان وملايين من ليراته وتقاسموا البلاد يميناً ويساراً وكبلوها بالقروض الأجنبية ووضعوا أراضـــي الدولـــة بالمـــزاد وأرســـلوا دلاليهم يطوفون في العواصم الأوربية لهذه الغاية . أنهم هم الذين شجعوا الحركة الصـــهيونية ويعتزمون بيع فلسطين الى اليهود كي يصبحوا شعبا مستقلاً هناك . ان حقي بك بابان – وهو أحد قادتهم ونائـــب سابق عن بغداد – اقترح إعلان الأحكام العرفية في العراق وذبح الزعماء العرب كافة، وأراد بيع ثروة المراقد المقدسة في كربلاء والنجف وتقاسم هذه الغنيمة مع شركائه، وهو ما كان سيؤدي الى قيام حرب أهلية في العراق الذي هـــو قطر شيعي تقريباً . لقد سبب هؤلاء الأوغاد أنفسهم الكارثة الحالية حيث دمر الجيش العثماني وضاعت الروملي

وراح نـــاظم باشا ضحية مكائدهم بعد أن حاربوه بكل وسيلة، وديست حقوق المسلمين بالأقدام ودنس شرفهم . إن هؤلاء الرجال ليسوا مسلمين ولكنهم تظاهروا بالاسلام كي يدمروه ويستأصلوه من الجذور (77) .

وانـــتقل البيان بعدها الى سؤال قارئيه عما سيفعلونه لتلك العصابة الشريرة، وطالب باسم الاسلام الجيش والأمة العربية بالدفاع عن الدين والشرف والكرامة العربية . وكرر مرة أخرى الهجوم على القادة الاتحاديين الذين لا نسب لهـــم ولا حسب وهم مجرد عصابة أشرار فاسقين من أدنياء اللصوص .وأردف ان أولئك الرجال يريدون تحويل العرب إلى تـــرك واماتـــة لغتهم العربية، وذكر بتعليل رئيسهم أحمد رضا بك عجز الأمة العثمانية عن التقدم على غرار الأمم الأخـــرى بتكبـــيل الدين لحركتها . وحث البيان منتسبي الجيش والعرب والمسلمين عموماً على منع تلك " المخلوقات الشـــريرة "مـــن تحويل الخلافة إلى امبراطورية وجعل العطلة يوم الأحد بدلاً من الجمعة وتبني التوقيت الأوربي فتطمس بذلك معالم الدين. ودعا البيان قارئيه إلى اليقظة والحذر وعدم الغفلة عن أعمال تلك الجماعة الكافرة التي جعلت مال الله مـــالاً لها واستعبدت عباده المخلصين ووضعت يديها على ملكية الدولة ونهبت الناس وجردت الخلافة من سلطتها وأفســـدت الأمـــة . وانـــتقل البيان للقول ان المجربين المتمرسين بالأمور من رجال العرب شكلوا جمعيات ولجانا تضم مســـلمين ونصارى في البصرة وحلب وبيروت ودمشق ونذروا حيواتهم وأموالهم من أجل حماية أرض العرب والمطالبة بحكومة مستقلة لها طبقاً للبرنامج الذي نشر سابقاً، وهو مطلب يصر العرب عليه فاذا أجيب ظلوا رعايا مخلصين، وان رفضـــته الحكومة القائمة فسيهبون ضدها بأسلحتهم ويسقطونها . وختم البيان بالقول ان العرب متحدون في مطالبهم ويتمتعون بتأييد بعض قطعات الجيش في أجزاء أخرى من الدولة، وان نيل حكومة مستقلة هو الانقاذ الوحيد للعراق والعرب (78) .

ويلاحظ على هذا البيان حدته في الهجوم على قيادة جمعية الاتحاد والترقي، مما يعكس رغبة السيد طالب في ممارسة مـــزيد مـــن الضـــغط على تلك القيادة لعله يلين موقفها تجاهه .كما يلاحظ أن صياغة البيان لم تفرق بين مطلبي " الاســـتقلال " و "الاستقلال الذاتي "، ولكن الحديث عن البقاء "رعايا مخلصين " يقطع بان المقصود كان استقلالاً ذاتياً واسعاً . وقد تناول القنصل البريطاني في البصرة ذلك البيان بالتعليق فقال انه مطنب وطنان وذو أسلوب تحريضي مؤكد ويحتمل أن يضع كاتبيه في مشكلة اذا ما اهتمت الحكومة المركزية بمثل هذا النوع من اللغو. وأورد ما علمه عن استقبال جـــيد للبـــيان مـــن لـــدن الأوساط التي وزع عليها حيث تلقى السيد طالب ردوداً كثيرة حوت تأكيدات المرسلين باستعدادهم للقتال حتى الموت في سبيل الهدف المعلن (79) . أما القائم بأعمال السفارة البريطانية في اسطنبول فقال ان غاية البيان هي أن يكون وثيقة اتهام لجمعية الاتحاد والترقي التي تعاون معها السيد طالب فيما مضى، ولكنه قطع صلته بهـــا لاحقا بسبب كرهه لأساليبها حتى غـــدا في النهاية أحد ألد خصـــومها . وأضاف ان المحاولة الأخيرة التي جرت لاغتـــيال الســـيد طالب (80) . كانت من تدبير المجلس المركزي لجمعية الاتحاد والترقي حسب الاعتقاد الشائع محليا، وهي الواقعة التي ربما تفسر جزئياً حدة لهجة البيان . وختم القائم بالأعمال تعليقه بالقول ان آراء البيان تبدو مخزية لمن يلازمـــون الصمت في الولايات العربية وولايات أخرى، وربما ستصبح بذرة لاضطراب في العراق ان لم يكـــن في كل

العالم العربي ـ العثماني (81). وكان رأي المقيم السياسي البريطاني في بغداد في ذلك البيان هو انه جاء مغلقا لباب أي تفاهم ودي بين الحكومة وجمعية البصرة الاصلاحية (82) .

ولم يكن ذلك البيان العنيف خاتمة المطاف في أنشطة السيد طالب، فقد أعد مضبطة باللغة التركية ختمها ووقعها حوالي ثمانين من وجهاء البصرة مختارين أو مكرهين في بعض الحالات كما علم القنصل البريطاني في البصرة . وأبرق مضمون تلك المضبطة الى وزير الحربية في اسطنبول في شهر كانون الأول – ديسمبر 1913.وكان اقدام السيد طالب على اعداد تلك المضبطة وابراقها وليد سخطه على الاجراءات القضائية المتعلقة بقضية اغتيال فريد بك . وقد أستهلت تلك المضبطة بتأكيد ولاء سكان البصرة، فعلى الرغم من الظلم الكبير الذي ألحقه بهم اداريون سيئون، واصلوا خدمة الدولة والتبرع للحكومة بسخاء . وبدل أن تكافئ السلطات الحكومية أولئك الذين خدموها باخلاص ظلت تصغي لأكاذيب كائدين شريرين متنقصين للآخرين .وذكرت المضبطة وزير الحربية بالأخوة بين العسكر والمدنيين وناشدته الحيلولة دون دفع الطرفين لاراقة دماء بعضهم البعض . وطالبت المضبطة بنقل قضية فريد بك من البصرة لنظرها في أية ولاية من ولايات الدولة الأخرى عدا بغداد والموصل . وجاءت خاتمة المضبطة على شكل انذار، ذا نص : " اذا لقي عرضنا للقضية انصافاً واهتماماً عادلاً وتحسن الوضع تكون الحكومة قد أدت واجبها ودعمت الحق ونظل نحن وبلدنا في سلام . واذا كان الأمر على العكس فإننا سنتخذ كل الاجراءات للدفاع عن حقوقنا وشرفنا حتى آخر رجل منا وآخر أنملة من أرضنا . تذكر سيدي الولايات التي فقدت سابقاً والحروب الأخيرة ونتائجها واستقلال اليمن وألبانيا ..." (83) . ويتضح من هذه المضبطة ما هو معروف من حرص السيد طالب على تجسيد الحركة القومية في البصرة في ذاته، فالحديث عن ولاء "سكان البصرة" وخدماتهم وتبرعاتهم السخية منصب على ما قام به هو بالذات . كما تدل اشارته الى " استقلال " اليمن " الى عدم وضوح فكرة الاستقلال الذاتي في ذهنه . إذ أن اليمن كما هو معروف حصل على " استقلال ذاتي " بموجب صلح الدعان بين الامام يحيى والعثمانيين سنة 1911 .

محاولة عقد مؤتمر لبعض زعماء الخليج وشبه الجزيرة العربية :

ويبدو أن السيد طالب فكر خلال ذلك كله برفد قوة حركته بدعم من القوى العربية المجاورة . اذ كثر الحديث في وقت مبكر من شهر تشرين الثاني – نوفمبر 1913 عن عقد مؤتمر في الكويت أو جوارها لمناقشة الاصلاحات المطلوبة ومصالح العرب السياسية . وذكر ان المؤتمر المزمع سيحضره كل من شريف مكة وابن سعود وابن رشيد والسيد طالب فضلا عن أشخاص عديدين آخرين بينهم عجمي السعدون شيخ المنتفق الذي كان قد تنصل من اتفاقه السابق مع السيد طالب وأعلن معارضته لمنهاج جمعية البصرة الاصلاحية (84) . وقد بلغ شيوع تلك الأخبار حد نشرها في جريدة "النهضة " البغدادية . ونما لعلم المقيم السياسي البريطاني في بغداد بذل السلطات الحكومية غاية جهدها للحيلولة دون انعقاد المؤتمر مما يرجح عدم انعقاده في النهاية (85) . وقد علق السفير البريطاني في اسطنبول على تداول فكرة المؤتمر بالقول انها " ذات دلالة نظرا لانتشار عدم الارتياح بين العرب العثمانيين عموماً. وتدل قائمة الأسماء المعطاة على احتمال قيام أكبر زعماء الشطر العربي من الامبراطورية العثمانية بدفن خلافاتهم الشخصية في سبيل فرض طموحات

قومـية علـى الحكومة المركزية الموجهة من قبل جمعية الاتحاد والترقي التي لا زال العرب يعتبرونها مستمرة في سياسة التتـريك . ان هناك إلى اللحظة الراهنة دليلاً واهياً على وجود تلاحم بينهم، فالشريف الكبير مثلاً عدو صريح لابن سعود وعجمي عدو معلن للسيد طالب حتى وقت قريب . ان موقف الشريف الكبير ذو أهمية خاصة نظراً لطلبه الأخير مـن اللـورد كتشـنر Ki [يقصد ايفاده ابنه الأمير عبدالله للقاء كتشنر في القاهرة واستفساره عن امكانية مد والده بالأسـلحة] . فـيما يتعلق بابن سعود فان احتلاله الأحساء السنة الفائتة تعبير بليغ عن قوته ومشاعره تجاه الحكومة المركـزية . كما ان نفوذ السيد طالب وما يظهره من مهارة من أجل تعزيزه ومحافظته على علاقاته مع الكويت ونجد أمـران معـروفان جيداً لدى حكومة جلالته . فإذا ما اتحد كل أولئك الزعماء في هبة دستورية أما لاحداث تغيير في الحكـومة المركـزية أو لنـيل استقلال ذاتي، وأما في حركة انفصالية معادية، يمكنهم خلق مشكلة كبيرة دون شك . ويستحيل تحديد المأمول حقا من وراء أية حركة عربية متحدة . ويمكن الاستدلال على تنبه الحكومة المركزية للأمر من حقـيقة تعييـنها ولاة عسكريين نشطين يمكن للجمعية الاعتماد عليهم في بغداد والبصرة والحجاز ... أعتقد ان من الحكمة الامتناع عن اظهار أي اهتمام خاص بالقضية العربية خلال حواراتي مع الصدر الأعظم والوزراء الآخرين نظرا للشـكوك الـتي ربما تثور من جراء اطلاع الحكومة التركية المحتمل على تطلع العرب للحصول على تعاطف حكومة جلالـته مـع حركتهم وحتى للحصول على حمايتها في نهاية المطاف إذا نجحوا في نيل استقلالهم ... ان الحاجة جلية للانتباه في اللحظة الراهنة لأن هناك دليلاً على وجود حركة متفق عليها بين العرب . وإذا تحققت هذه المشاريع ونجح العـرب آخر المطاف في هزيمة الجيوش العثمانية هزيمة يعقبها على الأرجح ضياع الخلافة ... يفترض ان الحكم التركي بصـورته الحالية سوف يختفي، وربما ستواجه أوربا حينها قضية اقتسام الامبراطورية التركية التي قد تثير تعقيدات ذات طبـيعة خطيرة . وسيصعب تخمين ماهية الآثار التي قد تتعرض لها الهند من جراء صراع طويل من أجل الحصول على الخلافـة . انـني _ نظراً للقضايا الكبيرة المطروحة _ أتصور ان الحكومة [التركية] الحالية ستعمل كل ما في وسعها لتفادي ايصال الأمور الى الحافة في اللحظة الراهنة، ويرجح انها ستساير الشريف الكبير بأي شكل الى أن تفرق العرب أو تشعر انها غدت بمركز يؤهلها لمواجهتهم بنجاح مؤكد " (86) .

ويتضح من هذا النص مقدار الجدية التي كانت السفارة البريطانية في اسطنبول تنظر بها إلى الحركة القومية العربية ومـا تعلقـه مـن آمال على آفاقها المستقبلية . ويلاحظ هنا ان السيد طالب على الرغم من صـلاته شبه المعلنة مع البريطانيين كان حريصا على التظاهر أمام السلطات الحكومية والرأي العام بمظهر النأي عنهم . فحين نشرت صحيفة " متين Metin " الفرنسية خبراً مفاده ان عرب البصرة رفعوا العلم البريطاني بدلاً من العلم العثـماني سارع للابراق الى وزيري الحربية والداخلية مؤكدا لهما ان الخبر عار عن الصحة وان سكان ولاية البصرة رعايا للسلطان مخلصون غاية الاخلاص . وتلقى السيد طالب على برقيته تلك شكر الحكومة المركزية (87) .

التسوية بين السيد طالب والاتحاديين:

وقد كانت تلك البرقية تمهيدا لانقلاب كامل في موقف السيد طالب . إذ فاجأ سكان مدينة البصرة بتوزيع اعلان مطبوع في نهاية شهر كانون الثاني – يناير 1914، جاء فيه ان كافة الخلافات بينه وبين الحكومة المركزية قد انتهت وزال سوء تفاهمه معها، وسيعمل مستقبلا مع الحكومة من أجل خير الدولة، وسيبذل غاية جهده في سبيل تعزيز الوحدة العثمانية . وبعد أن أورد المقيم السياسي البريطاني في بغداد تلك المعلومة علق عليها بقوله ليس هناك ما يدعو لأخذ أقوال السيد طالب تلك على محمل الجد وإن كان السلطان العثماني قد كافأه عليها بمنحه وسام العثمانية من الدرجة الأولى وبمنح ميدالية ذهبية لكل من ابنيه اللذين كانا يدرسان في في كلية فرنسية في اسطنبول . واستطرد المقيم فذكر ان صحيفة " ضاعت الطاسة " الصادرة في البصرة نشرت مقالاً كرسه كاتبه للهجوم العنيف على السيد طالب بسبب مشاعره المعادية للترك ولتحذيره من الدمار والفناء القريب بسبب اطلاع الحكومة على مكائده وأعماله الشريرة (88) ولابد أن يكون نشر ذلك المقال سابقاً لاصدار السيد طالب اعلانه سالف الذكر .

وتتضارب الآراء حول سبب اقدام السيد طالب على تلك الخطوة المفاجئة حيث عزاه أحد الباحثين لتجاوبه مع اغراءات من جانب الرجل القوي في النظام الاتحادي وزير الحربية أنور باشا الذي وجه واليي بغداد والبصرة إلى ضرورة مشاورة السيد طالب مستقبلاً حول شؤون الولايتين مما جعله يصدر ذلك الاعلان . وقد اعتبر الاعلان شهادة وفاة للحركة العربية المعارضة في البصرة (89) . ويؤكد آخر سعي الحكومة الاتحادية لارضاء مطامح السيد طالب واحتواء مطالبه المتطرفة ويضيف انه تجاوب مع ذلك المسعى، فجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن اصدار ذلك البيان (90) . ولكن أحد المقربين من السيد طالب حينئذ علل اصدار ذلك البيان بتخوف السيد من وصول الوالي الجديد سليمان شفيق باشا مما اضطره للدخول في مفاوضات مع السلطات الاتحادية أعقبها صدور البيان(91). وقد فاته أن ذلك الوالي وصل إلى البصرة في الثالث من آذار – مارس 1914 بينما تم نشر البيان في آخر كانون الثاني – يناير 1914 . وزاد معاصر آخر الأمر فداحة بالقول أن اصدار البيان كان من نتائج تعيين صبحي بك لولاية البصرة حيث نجح بعد وصوله هناك في استمالة السيد طالب إلى صف الحكومة (92) . فغفل عن أن وصول صبحي بك لولاية البصرة تم بعد قرابة ستة شهور من اصدار البيان، أي في تموز – يوليو 1914 . وبصرف النظر عن تضارب تلك الروايات يمكن القول ان السلطات الاتحادية قدمت ثمناً ما مقابل اصدار ذلك البيان . بيد ان المصادر والمراجع المتاحة لم تقدم فكرة واضحة عن طبيعة ذلك الثمن (93).

ومهما كانت مضامين تلك التسوية بين الحكومة الاتحادية والسيد طالب فانها أدت إلى تعزيز مكانته في البصرة حتى تسلط على المدينة تسلطاً كاملاً غدت معه سلطات الولاية الرسمية عديمة القوة عملياً وخاضعة بشكل تام ومخز لمركزه المتغطرس على حد قول نائب القنصل الأمريكي في بغداد في الخامس والعشرين من شباط – فبراير 1914(94) ولكن السلطات الاتحادية حين عقدت تلك التسوية كانت تريدها مهلة لالتقاط الانفاس ريثما تعيد ترتيب الوضع في البصرة بما يرجح كفتها . وكانت خطتها لذلك تقوم على ارسال وال قوي معزز بالقوات الكافية التي تمكنه من كبح جماح السيد طالب . وقد وقع اختيارها على الضابط الكبير سليمان شفيق كمالي باشا ليقوم بذلك

الدور وأرسلت بمعيته إلى مقر ولايته قوة من الفيلق الأناضولي، فأثارت تلك الخطوة مخاوف السيد طالب بالفعل (95) ولكنه لم يستسلم لمخاوفه بل بادر كعادته للعمل على قهرها من خلال السعي الحثيث لكسب ود الوالي الجديد باغراقه بخـدمات مجانـية مثل اسكانه في قصر الشيخ خزعل المطل على شط العرب ووضع عربة السيد طالب الفخمة وخيوله الأصيلة تحت تصرفه (96). كما كثرت حفلات الأنس والطرب التي كانت تقام لذلك الوالي الذي اندمج بسرعة في محيطه الاجتماعي الجديد حتى أنه تعود لبس العباءة العربية مما جعل الناس يسمونه "أبو العبا " (97). و لم يقتصر تحرك السـلطات الاتحادية على مجرد تعيين ذلك الوالي، بل أنها أردفته بخطوة أخرى في غضون شهر شباط – فبراير 1914 حـين أوفـدت إلى البصرة رئيس أركان الفيلق الثالث عشر وبمعيته مرافق والي بغداد . وكان الهدف الظاهري لتلك الزيارة ـ كما روى القنصل البريطاني في البصرة ـ هو طمأنة السيد طالب على سلامة موقف الحكومة تجاهه . ولكن هدفها الحقيقي كان اعداد قائمة بأسماء الضباط العاملين في البصرة الذين سيطردون أو يحالون للتقاعد بسبب ميولهم الى الحـركة القومـية بـقـيادة السيد طالب . وأضاف القنصل ان تلك القائمة المنتظرة ليست الأولى، إذ سبق للقيادة الـحـربية نقـل بعض الضـباط الموالين للسـيد طالب من البصرة إلى بغداد أو اليمن، كما طرد آخرون أو أحيلوا للتقاعد(98).

وواصلت السلطات الاتحادية بعد ذلك مواصلة مساعيها للحد من خطر السيد طالب على الرغم من حالة الصفاء المعلـنة معه . فحاولت اغراءه بقبول منصب يبعده عن قاعدة قوته في البصرة . فقد أفاد القنصل البريطاني في البصرة في الـثلاثين من أيار – مايو 1914 ان وزير الداخلية أبرق للسيد طالب مخيراً اياه بين ثلاثة مناصب هي سفير أو وال أو عضـو في مجلس الأعيان .(99) وعلق القنصل على ذلك بقوله ان علاقة السيد طالب جيدة ظاهرياً مع الحكومة التي تبحث عن فرصة تمكنها من اعتقاله . وهو يدرك دقة وضعه، ولذلك يفضل البقاء في البصرة حيث يحول حرس شخصي كبير مسلح بينه وبين الاعتقال . وعاد القنصل نفسه للكتابة في الرابع من تموز – يوليو 1914 مفيدا ان وزير الداخلية طلعت بك أخبر السفير البريطاني في اسطنبول بأن السيد طالب سوف يحل محل والي البصرة وعزا القنصل ذلك لتقدير الحكومة المركزية لدور السيد طالب في صد هجوم مزعوم شنته قبائل المنتفق على مدينة البصرة حينئذ(100). وأضاف القنصـل قـوله : " ترك طالب لدى الحكومة انطباعا بامتداد سطوته وجعل نفسه مستحقا امتنانها لعونه لها في لحظة حـرجة ... وغـدا الوالي مجرد معاون للسيد طالب عرفانا منه لخدمات مثل الاقراض الدائم لعربة وتزويد مجاني يومي بالثلج، كما ينسجم هذا مع قاعدة خضوع شخصية ضعيفة لأخرى قوية . ان هذا التغير في حظوظ السيد طالب أمر ملفت للانتباه كثيراً نظراً لحقيقة فقره النسبي لدرجة انه لا يستطيع تغطية نفقات عطاياه للفقراء على طريقة روبن هود وصرفه على حاشيته الكبيرة الا بابتزاز كافة مواطنيه الأثرياء في البصرة" (101).

ولكـن ذلك المركز السياسي المكين الذي بناه السيد طالب في البصرة خلال السنوات السابقة سرعان ما ظهر ان دعائمـه مجـرد قش ذرته رياح الحرب العالمية الأولى التي هبت على المنطقة بعد نشوبها في أوربا في آب – أغسطس 1914 . فقـد انخـرط السيد طالب في مفاوضات سرية طويلة مع البريطانيين حول ثمن انضمامه الى جانبهم عند

انــدلاع الحرب بينهم وبين العثمانيين .(102) وعندما وصلت تلك المفاوضات إلى طريق مسدود غادر السيد طالب البصرة الى نجد عبر الكويت في رحلة انتهت به منفيا الى الهند بقرار بريطاني (103).

الخاتمة :

يستخلص من التفاصيل الكثيرة السالفة نجاح السيد طالب في استغلال الظروف الاجتماعية والسياسية التي كانت ســائدة في البصرة حينئذ لبناء مركز قوة حقيقي . وقد استخدم للوصول الى هذه الغاية تكتيكات تتسم بالبراعة وان شابتها مسحة غير شرعية أحياناً .ووظف ذلك المركز في تحدي السلطات الاتحادية تحديا كان يزداد حدة بمقدار ازدياد ضــعف تلــك الســلطات من سنة إلى أخرى . ومما حد من تطور ذلك المركز وبلوغه آفاقا أوسع مدى ما جرته إليه شخصــيته الصدامية من احتكاكات مع قوى فاعلة أخرى في مجتمعه ترتبت عليها معارك غير ضرورية . وكان السيد طالب يدرك خلال ذلك كله أهمية الأثر الدولي في صراعه مع الاتحاديين، فحرص مثل غيره من قادة العرب في عصره علــى اقامة صلة مع البريطانيين . وكان السيد طالب منذ بداية الحركة القومية المعارضة في البصرة على يديه قد مازج بينها وبين شخصه وأرادها مجرد اطار لأفكاره وطموحاته الشخصية . فلا عجب لذلك أن تبخرت تلك الحركة فور اختفائه عن مسرح الأحداث في البصرة بعيد انضمام الدولة العثمانية الى الحرب العالمية الأولى .

الهوامش

(1) من الدراسات المهمة في هذا المجال : جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس، بـــيروت، 1962 و عـــبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للامة العربية، بيروت، 1986 ووفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914، القاهرة، 1962 و Kayali , H. , Arabs and Young Turks 1908-1918 , San Diego, Cal., 1997.

(2) محمـــد هليل الجابري، الحركة القومية العربية في العراق بين 1908- 1914، رسالة دكتوراه قدمت الى كلية الآداب بجامعة بغداد في شباط 1980، ص ص 205-206 .

(3) صور من ضعفها في خالد السعدون، الأوضاع القبلية في البصرة 1908-1918، الكويت، 1988 .

(4) لونغـــريغ، ســـتيفن همســـلي، العراق الحديث من سنة 1900 الى سنة 1950، ترجمة سليم التكريتي، بغداد، 1988، ج 1، ص 83 .

(5) وميض جمال عمر نظمي، ثورة 1920، بغداد، 1985، ص ص 100- 102 .

(6) حسين هادي الشلاه، طالب باشا النقيب البصري، بيروت، 2002، ص 128 .

(7) أحمد عزت الأعظمي، القضية العربية : أسبابها –مقدماتها–تطوراتها –ونتائجها، بغداد، 1932، ج 4، ص ص 92 – 93 .

(8) NARA , RG 84 , John Van Ess to Mr.Magelssen , dated 12/10/1908 .

(9) FO 424/219,No. 17 , Con. Crow to Sir G. Lowther , 10/3/1909 .

(10) الجابـــري، المرجع نفسه، ص 64 . وذكر البعض ان انضمام السيد طالب الى جمعية الاتحاد والترقي تم في سنة 1909 [نظمـــي، المـــرجع نفسه، ص 103] والصحيح ان ذلك حدث بعيد عودته الى البصرة في تشرين الأول – أكتوبر 1908 . راجع : الشلاه، المرجع نفسه، ص 162 .

(11) الأعظمي، المرجع نفسه، ج4، ص 93 .

(12) لونغريغ، المرجع نفسه، ج1، ص 84 .

(13) الشلاه، المرجع نفسه، ص ص 170-171 .

(14) الجابـــري، المـــرجع نفسه، ص 392 . وعن قضية البيع تلك راجع : خالد السعدون، أحداث في تاريخ الخليج العربي، الاسكندرية، 2001، ص ص 389- 392 .

(15) الجابري، المرجع نفسه، ص 103 .

(16) IOR , L/P&S/10/188 , Summary of events in Turkish Iraq during the month of July 1910 .

ورواية فيضي نفسه عن ذلك الشجار في : سليمان فيضي، في غمرة النضال، بغداد، 1952، ص ص 73-74

(17) IOR , R/15/5/25 , No. 823 of 1910 , The Political Resident in Turkish Arabia to The Political Agent , Kuwait, dated 19/9/1910 .

(18) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، 1956، ج 8، ص 204 و فيضي، المرجع نفسه، ص 79 والجابري، المرجع نفسه، ص 393 .

(19) خالد السعدون، العلاقة بين شيخ المحمرة والسلطات العثمانية في ولاية البصرة 1908- 1914، في " شؤون اجتماعية، العدد 72، السنة 18، شتاء 2001، ص ص 13 – 15 " .

(20) IOR, R/15/5/25,No.1000 of 1910 , P. R. , Bag., to P. A. , Kuw. , dated 15/11/1910.

(21) نظمي، المرجع نفسه، ص 103 .

(22) الجابري، المرجع نفسه، ص 395 .

(23) FO 424/226, No. 35, Acting Consul Matthews to Mr. Marling , July 8, 1911 .

(24) خالد السعدون، الأوضاع القبلية، ص ص 148- 149 .

(25) محمـــد مظفـــر الأدهمي، المجلس التأسيسي العراقي، بغداد، 1989، ج 1، ص 17 . والغريب ان عدة مراجع ذكرت ان الفرع الذي أفتتح كان لحزب الحرية والائتلاف غافلة عن ان هذا الحزب لم يؤسس في اسطنبول الا في تشرين الثاني – نوفمبر 1911 . راجع : فيضي، المرجع نفسه، ص 97 و نظمي، المرجع نفسه، ص 104 وعبد الجبار حسن الجبوري، الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي 1908-1958، بغداد، 1977، ص 23 ومصطفى عبد القادر النجار، التاريخ القومي لامارة المحمرة العربية، بغداد، 1982، ص 41 .

(26) غسان العطية، العراق : نشأة الدولة 1908-1921، ترجمة عطا عبد الوهاب، لندن، 1988، ص ص 83- 84 .

(27) الجابري، المرجع نفسه، ص ص 213-214 .

(28) نظمي، المرجع نفسه،ص 104 .

(29) NARA , RG 84 , A. Konoff , Basrah, to E. Sauer, Baghdad , dated 25/9/1912 .

(30) عن تفاصيل ذلك الصراع راجع : خالد السعدون، الأوضاع القبلية، ص ص 174-179 .

(31) NARA , RG 84 , No.47/28 , A. Konoff , Bas. , to E. Sauer , Bag. , dated 9/12/1912 .

(32) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for January 1913 .

(33) Ibid.

(34) IOR , L/P&S/ 10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for the month of February 1913 .

(35) فيضـــي، المـــرجع نفسه، ص 30 و نظمي، المرجع نفسه، ص 99 وفؤاد قزانجي، العراق في الوثائق البريطانية 1905-1930، بغداد، 1989، ص ص 103- 104 .

(36) العطية، المرجع نفسه، ص 85 .

(37) IOR, L/P&S/10/212 , Sum. … Feb. 1913 .

(38) FO 424/237 , No. 171 , Sir. G. Lowther to Sir E. Grey .

(39) FO 424/237 , No. 11 , Consul Crow to Sir G . Lowther, dated 24/2/1913 . وقـــد أخطأت مجلة لغة العرب بالقول ان الاجتماع المذكور عقد في التاسع من آذار – مارس . راجع : لغة العرب، العدد 10، نيسان 1913، ص 475 .

(40) قارن هذا النص بما ورد لدى قزانجي، المرجع نفسه، ص ص 103- 104 .

(41) IOR, L/P&S/10/212 , Sum. … Feb. 1913 .

(42) FO 424/237 , No. 26 , Consul – General Cumberbatch to Sir G. Lowther , dated 12/3/1913 .

وعـــن الاصلاحات التي طالبت بها جمعية بيروت الاصلاحية راجع : الأعظمي، المرجع نفسه، ج 3، ص ص 46 – 53 .

(43) FO 424/ 237 , No. 238 , Sir G. Lowther to Sir Edward Grey , dated 24/3/1913 .

(44) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in T urkish Iraq for the month of April 1913 .

(45) FO 424/238 , No. 21 , Con. Crow to Sir G. Lowther , dated 26/4/1913 .

روي أيضا ان مطلب الوجهاء كان حل قوة الدرك بكاملها لكونها مناوئة للعرب . راجع : الجابري، المرجع نفسه، ص 412 .

(46) Ibid .

(47) Ibid .

(48) IOR , L/P&S/10/212 , Sum . … April 1913 .

(49) IOR , L/P&S/ 10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for the month of May 1913 .

(50) FO 424 /238 , No. 22 , Con. Crow to Sir G. Lowther , dated 29/4/1913 .

(51) Ibid .

(52) FO 424/238 , No. 26 , Con. Crow to Sir G. Lowther , dated 8/5/1913.

(53) IOR , L/P&S/10/212 , Sum. ...May 1913 .

(54) FO 424 /238 , No. 22 , ...

(55) NARA , RG 84 , File No. 800 , American Consul , Baghdad , to American Ambassador , Constantinople , dated 17/5/1913 .

(56) NARA , RG 84 , File No. 800 , Am. Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated 1/5/1913 .

(57) FO 424/238, No. 26 , ...

(58) IOR , L/P&S/10/212 , Sum. ...May 1913 .

(59) FO 424 / 238 , No. 26 , ...

(60) عن مضامين تلك الخطة راجع : السعدون، الأوضاع القبلية، ص ص 183-196 .

(61) IOR , L/P&S/10/212 , Sum. ... May 1913 .

(62) FO 424 / 238 , No. 30 , Con. Crow to Sir G. Lowther , dated 18/5/1913 .

(63) FO 424 / 239 , No. 41 , Con. Crow to Mr. Marling , dated 5/7/1913 .

(64) FO 424 / 239 , No. 44 , Con. Crow to Mr. Marling , dated 19/7/1913 .

(65) NARA , RG 84 , File No. 800 , Am. Con. , Bag. , to Am. Chage d' Affaires , Const. , dated 28/7/1913 .

(66) تضم المفتشية العامة عادة عدة فيالق منتشرة في عدة ولايات .

(67) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq during August 1913 .

(68) Ibid .

(69) FO 424 / 240 , No. 818 , Mr. Marling to Sir Edward Grey , dated 25/9/1913 .

ويلاحظ الفرق بين مضمون هذه البنود وتلك التي أوردها آنفا المقيم السياسي البريطاني في بغداد .

(70) FO 424 / 240 , No. 51 , Con. Crow to Mr. Marling , dated 28/8/ 1913 .

وتحسن مقارنة هذه البنود أيضا بما ورد لدى : قزانجي، المرجع نفسه، ص ص 108-112 والجابري، المرجع نفسه، ص ص 222- 225 والشلاه، المرجع نفسه، ص ص 279 - 282 .

(71) NARA , RG84 , File No. 800 , Am. Vice Con. , Bag. , to Am. Charge d'Affaires , Const. , dated 25/9/1913 .

(72)يلاحظ وجود تشابه بين هذا البرنامج وبرنامج جمعية بيروت الاصلاحية الذي كان قد أعلن في الحادي والثلاثين من كانون الثاني – يناير 1913 . راجع : أسعد داغر، ثورة العرب الكبرى 1916، ط 2، عمان، 1991، ص ص 30 – 33 .

(73) FO 424 / 240 , No. 818 , ...

(74) FO 424 / 240 , No. 51 , ...

(75) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq during September 1913 .

(76) NARA , RG 84 , File No. 800 , Am. Vice . ... , 25/9/1913 .

(77) FO 424 / 240 , No. 52 , Con. Crow to Mr. Marling , dated 30/8/1913 .

(78) Ibid.

(79) Ibid.

(80) يقصد المحاولة التي أسفرت في النهاية عن اغتيال فريد بك وصاحبه كما مر .

(81) FO 424 / 240 , No. 819 , Mr. Marling to Sir Edward Grey , dated 25/9/1913 .

(82) IOR , L/P&S/10/212 , Sum. ... Sep. 1913 .

(83) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq during November and December 1913 & January 1914 .

(84) الجابري، المرجع نفسه، ص 429 .

(85) IOR , L/P&S/10/212 , Sum. ... Nov. & Dec. 1913 & Jan. 1914 .

(86) FO 424 / 258 , No. 193 , Sir L. Mallet to Sir Edward Grey , dated 18/3/1914 .

(87) IOR , L/P&S/10/212 , Sum. ... Nov.& Dec. 1913 & Jan. 1914 .

(88) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq during February & March 1914

(89)العطية، المرجع نفسه، ص 85 وص 95 .

(90) نظمي، المرجع نفسه، ص 105 .

(91)فيضي، المرجع نفسه، ص ص 131- 132 .

(92)الأعظمي، المرجع نفسه، ج 4، ص 96 .

(93) تجد رواية عنها لدى الشلاه، المرجع نفسه ص ص 296- 297 .

(94) NARA , RG 84 , File No. 810 , Am. Vice Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated 25/2/1914 .

(95) NARA , RG 84 , File No. 800 , Am. Vice Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated 5/3/1914 .

(96) NARA , RG 84 , File No. 800 , Am. Vice Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated 18/3/1914 .

(97) محمد رؤوف الشيخلي، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها، البصرة، 1972، ج 2، ص 330 وعبدالقادر باش أعيان، البصرة في أدوارها التاريخية، بغداد، 1961، ص ص 60 – 62 .

(98) IOR , L/P&S/10/212 , Sum . …Feb. & Mar. 1914 .

(99) ذكر انه تلقى عرضا بتعيينه في مجلس الأعيان في شباط – فبراير 1914 ولكنه رفضه واستقال من عضوية مجلس المبعوثان أيضا . راجع : الجابري، المرجع نفسه، ص 337 .

(100) عن ذلك الهجوم راجع : السعدون، الأوضاع القبلية، ص ص 209 – 210 .

(101) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for the months of June & July 1914

(102) تفاصيل تلك المفاوضات في :خالد السعدون، الجهاد في الحرب العالمية الأولى : الدعوة والاستجابة، طرابلس، 1999، ص ص 48- 55 .

(103) تفاصيل ذلك لدى خالد السعدون، سر رحلة السيد طالب النقيب الى نجد في محرم 1333 / تشرين الثاني – كانون الأول 1914، في " الخليج العربي، المجلد 19، العدد 1، 1987، ص ص 97- 111".